الفصل الأول

استراتيجية القاعدة

فهم قاصر .. وقراءة خاطئة للواقع

تمهيـــد :

عندما أعلن الشيخ أسامة بن لادن عن قيام الجبهة العالمية لقتال الصليبين واليهود والأمريكان في صيف ١٩٩٨م كتكتل يجمع بجوار تنظيم القاعدة تنظيمات أخرى ، ثارت أسئلة كثيرة في نفوس كل المحبين للإسلام والخائفين عليه ، وكان من بين هذه الأسئلة التي لازالت تبحث عن إجابة إلى يومنا هذا :

- ألا يدرك أقطاب تلك الجبهة الاختلال الفادح في موازين القوى بين الأمة الإسلامية والمعسكر الغربي الأمريكي ؟
- هل من المصلحة إثارة حرب على أساس ديني والأمة الإسلامية ممزقة الأوصال وفي حالة تشرذم وتخلف .
- وهل من الحكمة تبني استراتيجية الصراع مع كل العالم في آن واحد ؟
- وهل يمكن أن تتخلى أمريكا عن وجودها في الخليج تحت وطأة بعض العمليات ضد رعاياها هنا أو هناك ؟
- ألم يكن من الأجدى الاهتمام ببناء دولة أفغانستان المسلمة في ظل فرصة تاريخية سانحة لتحقيق ذلك ؟
- أليس من الحكمة العمل على تحييد الأعداء بدلا من تجييشهم ؟
- أليس هناك ترتيب لأولويات المواجهة في ظل ضعف الأمة وضخامة التحديات ؟
- ألا يوجد في الشريعة الإسلامية وسائل أخرى يمكن أن تكون أكثر صلاحية من منطق الصدام في ظل هذه التحديات ؟

هذه الأسئلة وغيرها كثير ثارت وظلت تتجدد مع كل عملية من عمليات تنظيم القاعدة ، وظلت الإجابة عنها غائبة عن البعض إلى يومنا هذا ، وحاضرة عند آخرين ممن يعرفون أقطاب القاعدة عن قرب .

فمن يعرف أقطاب القاعدة ومنهج تفكيرهم سيجد الإجابة ميسورة دون عناء .

هم يدركون المأزق الذي تعيشه الأمة اليوم ، لكنهم لا يرون إلا استجابة واحدة للتعامل معه لا تخرج عن منطق الصدام والصراع والتضحية والجهاد .

وهم يعلمون الاختلال الحاد في موازين القوى العالمية لغير صالح أمة الإسلام ، لكنهم يرون أن فارق القدرات يمكن تعويضه بتقديم الشهداء دونما انتظار أي نتائج إيجابية خلال هذا الجيل أو بعد أجيال عدة .

وهم يرون أن استنفار الأمة ضد خصومها سيجعل شعلة الجهاد مشتعلة ومتقدة ، وبالتالي لا مانع من إشعال المواجهات بطول العالم وعرضه .

وهم يرون أن منطق التعاون والصلح مع أعداء الأمة قرين للاستسلام والخيانة والعمالة ، ومن ثم فلا صلح ولا تفاوض ولا سلام .

هذه بعض قسمات منطق القائمين على القاعدة . ومن الطبيعي والحال كذلك أن تأتي قراءاتهم للواقع ومعطياته مشوبة بالخطأ وينتابها الخلل .

وهكذا تظهر استراتيجية القاعدة في صورة تعلي منطق الصدام وتوسع دائرة الصراع بغض النظر عن القدرات والمآلات والمصالح والمفاسد والنتائج

وإذا تأملنا هذه الاستراتيجية سنجد أن الخلل تتطرق إليها من بابين هما :

أولا : الخلل في فهم فريضة الجهاد ، فالجهاد عندهم مراد لذاته وهو الوسيلة الوحيدة الفعالة لمواجهة تحديات الواقع ومعطياته .

ثانيا : الخلل في قراءة الواقع مما نجم عنه خلل في ترتيب الأولويات وتحديد الأهداف واختطاط الاستراتيجيات .

وإذا كنا بصدد تقييم استراتيجية القاعدة فلابد أن يمر هذا عبر النظر إلى هذين الأمرين ، وهو ما سنستعرضه عبر المبحثين الآتيين :

- **المبحث الأول** : استراتيجية القاعدة .. قراءة خاطئة للواقع .
- **المبحث الثاني** : استراتيجية القاعدة .. فهم خاطئ لفريضة الجهاد .

○ ○ ○

استراتيجية القاعدة .. خلل في قراءة الواقع

برز تنظيم القاعدة على شاشة الأحداث في ظل التغييرات الدراماتيكية التي شهدها العالم في مطلع عقد التسعينات من القرن الماضي ، والتي أثمرت عن انهيار الاتحاد السوفيتي وانتقال العالم من نظام القطبية الثنائية إلى نظام القطب الأمريكي الواحد وحتى إشعار آخر .

وفي ظل هذه الأوضاع اختط تنظيم القاعدة لنفسه استراتيجية تبلورت في اتجاه التحدي والصدام مع القطب الأمريكي ، والسعي لاستثارة حرب على أساس ديني باتت تتسع باتساع العالم شرقا وغربا . ومع وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ ظهر جليا انطواؤها على خلل كبير ، مرده الخلل في قراءة الواقع .

وإذا كنا الآن بصدد تقييم تلك الاستراتيجية وتحديد ما لها وما عليها ، فلابد أن يسبق ذلك تحديد الأهداف التي صيغت تلك الاستراتيجية من أجل بلوغها .

أولا : استراتيجية القاعدة .. « الأهداف »

يمكن القول بأن تنظيم القاعدة ولد من رحم الجهاد الأفغاني ، ومن ثم فقد كانت أهدافه أهدافا أفغانية في المقام الأول ؛ ومع طرد الاتحاد السوفيتي من أفغانستان وإعلان انتصار فصائل المجاهدين على النظام الموالي لموسكو بدا أن القاعدة تحتاج لإعادة النظر في دورها .

ولكن تفاقم الصراع بين فصائل المجاهدين الأفغان الذي نشب بعد الانسحاب السوفيتي فرض على أقطاب القاعدة استمرارا في الانغماس في الحالة الأفغانية ، ومن ثم ظهر تحالف قوي بين تنظيم القاعدة وحركة طالبان ، التي ما لبثت أن سيطرت على ٩٠٪ من أراضي أفغانستان معتلية سدة الحكم بدعم باكستاني في سنة ١٩٩٦ م .

وفي ظل العلاقة الوثيقة بين القاعدة وحركة طالبان بدأ تنظيم القاعدة يحدد له أهدافا خارج إطار الجهاد الأفغاني .

ويمكن أن نميز بين مرحلتين في رصدنا لأهداف تنظيم القاعدة :

- **المرحلة الأولى** : وهي المرحلة التي امتدت من قبيل سيطرة حركة طالبان على الحكم بأفغانستان وإلى تاريخ الإعلان عن قيام الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبين والأمريكان ، وفي هذه المرحلة تبلورت هذه الأهداف في : دعم حركة طالبان

لإتمام السيطرة على أفغانستان ؛ بالإضافة إلى السعي للضغط العسكري على أمريكا للخروج من الخليج عامة والسعودية - حيث الأماكن المقدسة - خاصة .

○ **المرحلة الثانية** : هي المرحلة التي امتدت من الإعلان عن الجبهة العالمية لقتال الصليبيين واليهود والأمريكان سنة ١٩٩٨ إلى يومنا هذا ، وتبلورت الأهداف في هذه المرحلة في إرغام أمريكا والقوى الدولية الأخرى على الانصياع لمطالب القاعدة سواء في الخليج أو الشيشان أو كشمير أو داغستان أو فلسطين ، والحقيقة أن المتأمل في هذه المرحلة سيجد أنها تميل للضبابية وعدم التحديد .

ثانيا : استراتيجية القاعدة .. « القسمات »

إذا ما أردنا تحديدا لقسمات الاستراتيجية التي اختطها تنظيم القاعدة لتحقيق الأهداف السابقة ، فيمكن أن نلخصها في النقاط الآتية :

١- التحدي والاستنزاف العسكري لأمريكا وحلفائها بضربات موجعة وإن كانت متباعدة .

٢- توسيع رقعة الصراع بطول العالم وعرضه .

٣- كسب دعم وتعاطف الشعوب الإسلامية بإلباس المواجهة مع أمريكا ثوبا دينيا بإعلان الحرب على الصليبيين واليهود .

وإذا كانت استراتيجية القاعدة قد حددت أمريكا كهدف أساسي لها ، فإن تتابع الأحداث وتطوراتها جعلت القاعدة في حقيقة الأمر تدخل في مواجهة مع أكثر دول العالم سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

٤- الاعتماد على أسلوب التحرك الذاتي من قِبل المجموعات والخلايا المنتشرة في العالم سواء تلك المرتبطة بالقاعدة تنظيميا ، أو تلك التي تبنت استراتيجية القاعدة عبر خطابها الإعلامي ، وهذا ما أوضحه الدكتور : « أيمن الظواهري » - الرجل الثاني في تحالف القاعدة والجهاد - في أحد إصداراته الحديثة [١].

---

(١) راجع جريدة القاهرة الصادرة بتاريخ ٢١ / ١ / ٢٠٠٣ ص [٣] ، وجريدة الحياة الصادرة في ١٤ / ١ / ٢٠٠٣ م .

٥- الابتعاد عن استهداف النظم القائمة في الدول الإسلامية وحصر المعركة فقط في اتجاه اليهود والصليبيين والأمريكان .

ثالثا : استراتيجية القاعدة « الأسس الواقعية »

يثور سؤال عن الأسس التي استندت إليها الاستراتيجية التي اختطتها القاعدة والتي أوردنا قسماتها وملامحها الأساسية في صفحات سابقة . وفي الحقيقة هناك أسس شرعية وأخرى واقعية تستند القاعدة إليها في تبني هذه الاستراتيجية ، وإذا كنا سنتناول الأسس الشرعية لهذه الاستراتيجية في مواضع عديدة من هذا الكتاب فإننا سنتناول في هذا المقام أهم الأسس الواقعية التي نحسب أن القاعدة تؤسس استراتيجياتها عليها .

وسوف نركز على قضيتين أساسيتين تتذرع بهما القاعدة لتبرير خيارها الاستراتيجي وهما :

١- إن الاستراتيجية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي عامة وإمارة أفغانستان المسلمة تحت حكم طالبان والقاعدة خاصة تتسم بالظلم والسعي للسيطرة والهيمنة ؛ انطلاقا من العداء لكل ما هو إسلامي ؛ وخاصة بعد استبدال الخطر الإسلامي بالخطر الشيوعي في سلم الأعداء ، ومن هنا ترى القاعدة أنه ينبغي مواجهة هذه الاستراتيجية الأمريكية ومقاومتها بنفس منطقها وبما يردعها عن الاستمرار فيها ، فإن استطعنا تغييرها فبها ونعمت ، وإن استمرت ولم نفلح في إيقافها فلم نخسر شيئا .

٢- إن هناك حربا دينية ضد الإسلام تتم تحت مسميات شتى : تارة باسم الإرهاب ، وتارة باسم حماية الأقليات كما في جنوب السودان ، وتارة باسم حقوق الإنسان كما في إيران وأفغانستان ، وتلعب أمريكا وأوروبا دورا محوريا في هذه الحرب الدينية ، فيجب على الأمة الإسلامية التوحد لمواجهة هذا الحلف الديني ضدها ، وهذا التوحد هو عين ما دعت إليه القاعدة حينما أعلنت عن قيام الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين خاصة بعد نكوص الحكومات عن مواجهة مثل هذا المخطط .

هذه أهم المستندات الواقعية التي تؤسس عليها القاعدة استراتيجياتها ، ومن الأهمية بمكان أن نتناول ما تثيره هذه المستندات من قضايا بالعرض والتقييم لأهميتها الحيوية في تقييم استراتيجية القاعدة تقييما موضوعيا .

الاستراتيجية الأمريكية وقضايا العالم الإسلامي .. « عرض وتقييم »

هناك عدد من الأسئلة تطرحها القاعدة عادة وتتعلق بالإستراتيجية الأمريكية منها :

أليست الاستراتيجية الأمريكية هي التي استهدفت العالم الإسلامي أولا ؟

ألسنا في حالة دفاع عن أنفسنا وعن دولة أفغانستان الإسلامية ؟

أليست أمريكا هي السبب في استمرار كل مشاكلنا في فلسطين وغيرها ؟

وهذه الأسئلة تساق للتدليل على أن الاستراتيجية الأمريكية لا تتيح خيارا آخر أمام القاعدة سوى ما تفعله الآن .

أ- والسؤال هنا : هل هذه القراءة للاستراتيجية الأمريكية تتسم بالدقة والموضوعية أم أنها قراءة خاطئة في بعض جوانبها ؟

الذي نراه أن هذه القراءة يشوبها خلل واضح وبين ، وقبل أن نستعرض ملامح الاستراتيجية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي عامة والقاعدة وحركة طالبان خاصة نود التأكيد على أن الاستراتيجية الأمريكية تجاه عالمنا الإسلامي وقضاياه اتسمت بقدر كبير من الظلم والإجحاف بالحقوق المشروعة للعديد من دوله وأبنائه ، وهذه قضية أحسب أنها لا تحتاج لمزيد شرح وتفصيل لوضوحها للقاصي والداني .

ومع هذا لا يسع أي منصف يتابع تطور السياسات الأمريكية تجاه العالم الإسلامي منذ ١٩٤٥م وحتى الآن إلا الاختلاف مع قراءة القاعدة لتلك الاستراتيجية . فالاستراتيجية الأمريكية لم يكن محركها الأول العامل الديني إنما كانت سمتها الغالبة ترجيح المصالح الأمريكية على أي أمر آخر ؛ وهو ما يفسر أحداثا كثيرة بدت فيها أمريكا وكأنها داعمة لبعض القضايا الإسلامية مثل حالة دعم الجهاد الأفغاني في ١٩٧٩م ضد الوجود السوفيتي بأفغانستان على سبيل المثال ؛ ولذلك فيمكن القول بأن سياسات القاعدة أسهمت بشكل مؤثر في تشكيل الاستراتيجية الأمريكية في طورها الأخير الذي أعقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م الشهيرة ، ولعل الاستعراض التفصيلي للاستراتيجية الأمريكية ومراحل تطورها يكشف عن صحة هذا الاستنتاج .

مراحل الإستراتيجية الأمريكية تجاه قضايا العالم الإسلامي
« من ١٩٤٥ - ٢٠٠٣ م »

تقتضى الدقة والموضوعية عند البحث عن الاستراتيجية الأمريكية تجاه الإسلام وقضايا العالم الإسلامي أن نميز بين المراحل المختلفة التي مرت بها تلك الاستراتيجية وفقا لتطور المستجدات سواء على الساحة العالمية أو الإسلامية أو في الداخل الأمريكي ، يمكن أن نميز بين عدة مراحل مرت بها هذه الاستراتيجية طوال الستين عاما الماضية كالآتي :

- **المرحلة الأولى** : تبدأ من انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥م ، وتمتد إلى نهاية الحرب الباردة في ديسمبر ١٩٩١م بانهيار الاتحاد السوفيتي ، وعنوانها :
  مرحلة تأمين المصالح الأمريكية في العالم الإسلامي ضد أخطار الشيوعية .
- **المرحلة الثانية** : تمتد من سنة ١٩٩١م إلى إعلان الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين وبدء تنفيذ العمليات ضد أمريكا في أنحاء مختلفة من العالم ، وعنوانها :
  من البحث عن استراتيجية جديدة إلى التصعيد والضغوط المتبادلة .
- **المرحلة الثالثة** : تمتد من الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ عقب الهجوم بالطائرات المخطوفة على برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك وإلى يومنا هذا ، وعنوانها :
  استراتيجية استعادة الهيبة واستباق المخاطر .

ولعل هذا التتبع يكشف لنا عن حقيقة هامة تتعلق بسمة التغير والتطور التي هي من أهم خصائص الاستراتيجيات والسياسات والتي قد يغفل عنها البعض .

○ ○ ○

ولنشر الآن إلى معالم كل مرحلة
من هذه المراحل بقدر مناسب
من التفصيل :

المرحلة الأولى :

مرحلة تأمين المصالح الأمريكية في العالم الإسلامي ضد أخطار الشيوعية [١٩٤٥ - ١٩٩١]

عندما وضعت الحرب للعالمية الثانية أوزارها في صيف ١٩٤٥م تمخضت عن أفول قوى دولية سائدة - بريطانيا وفرنسا - وصعود قوى جديدة لتتبوأ محل القوى الآفلة ، ولتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات الدولية عنوانها : **الحرب الباردة بين المعسكر الغربي « الليبرالي »** بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وبجناحه العسكري المتمثل في حلف الأطلنطي ، **والمعسكر الشرقي الشيوعي** بقيادة الاتحاد السوفيتي وبجناحه الاقتصادي العسكري المتمثل في « حلف وارسو » .

وبدأ صراع رهيب للسيطرة على مناطق النفوذ والمواقع الاستراتيجية عبر العالم الأرضي والفضائي ، ومن ثم كان على قمة أهداف الاستراتيجية الأمريكية ما اشتهر بهدف تطويق الخطر الشيوعي ومنعه من التمدد إلى العالم الحر أو المناطق التي تمثل أهمية استراتيجية قصوى لأمريكا .

وكان هذا التطويق للخطر الشيوعي يعني - في المقام الأول - إحكام الحصار حول الاتحاد السوفيتي ومنعه من الوصول للمياه الدافئة سواء في المحيط الهندي أو الخليج العربي أو البحر المتوسط ، وكان هذا الحصار يتطلب إقامة حزام من دول موالية لأمريكا يحيط بالحدود السوفيتية من الجنوب والشرق والغرب .

ولقد كان عدد كبير من هذه الدول المرشحة لهذا الدور توجد في نطاق العالم الإسلامي مما أوجد فرصة الالتقاء بين الأهداف الأمريكية الساعية لتطويق الخطر الشيوعي والرؤية الإسلامية للشيوعية ، باعتبارها مروقا من الدين .

ومن هذا المنطلق عرضت أمريكا - خاصة في ظل تعاظم أهمية منطقة الخليج مع توالي الاكتشافات البترولية بها - على عدد من الدول الإسلامية التعاون لتطويق الخطر الشيوعي من خلال إقامة مجموعة أحلاف تشارك فيها دول المنطقة مع أمريكا ، وكان أشهرها « الحلف الإسلامي » الذي عرض على بعض الدول الإسلامية مثل باكستان والعراق وتركيا ومصر الدخول فيه ، لكن جاء الرفض المصري آنذاك في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي ليضع حدا لمثل هذا المشروع الطموح .

ومع استمرار الحرب الباردة واعتماد الإستراتيجية الأمريكية على إسرائيل لمنع وقوع منطقة الشرق الأوسط في يد الشيوعية ، وكحارس أمين للمصالح الاستراتيجية الأمريكية بها ، بدا أن أمريكا تسير في اتجاه مناوئ للإسلام وقضاياه .

ومما أكد نفس الاتجاه الموقف الأمريكي السلبي تجاه الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية بعد عام ١٩٦٧م ، والصراع العنيف مع الثورة الإسلامية الإيرانية التي أطاحت بالشاهنشاه محمد رضا بهلوي رجل أمريكا الأول بالمنطقة في فبراير ١٩٧٩م .

لكن مع دخول الجيش السوفيتي لأفغانستان لدعم النظام الشيوعي الحاكم بها عادت الاستراتيجية الأمريكية مرة أخرى لتؤكد أن المصالح الأمريكية تسبق حسابات العقائد والأديان ، فكان الدعم الأمريكي للجهاد الإسلامي الأفغاني عبر باكستان والسعودية والإمارات دليلا على هذه الحقيقة ، ولقد كانت هذه الحقيقة نفسها سببا أيضا في دعم أمريكا لنظام الجنرال ضياء الحق في باكستان ، وفي غض الطرف عن توجهه نحو تطبيق الشريعة الإسلامية .

ولقد استمر الدعم الأمريكي للجهاد الأفغاني إلى أن انسحب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان بعد استنزاف له دام عشر سنوات أعقبها انهيار مدو للاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٩١م ، وبانهياره طويت صفحة الحرب الباردة وانتقل العالم إلى وضع دولي جديد وبدأت تلوح في الأفق ملامح استراتيجية أمريكية جديدة .

المرحلة الثانية :

من البحث عن استراتيجية جديدة إلى التصعيد والضغوط المتبادلة بين أمريكا والقاعدة ، [١٩٩١م .. الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م]

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي انتقل العالم من القطبية الثنائية المبنية على وجود قطبين متوازنين إلى نظام القطب الأمريكي الأوحد مما دفع البعض إلى تسمية هذا العصر بالعصر الأمريكي ، والذي بدا أنه سيستمر إلى حين صعود قوى أخرى موازنة لها من الدول المرشحة لذلك كالصين أو روسيا الاتحادية أو الاتحاد الأوروبي أو اليابان .

وبدأت أمريكا تكتشف رويدا رويدا حقيقة انفرادها بمقادير العالم والذي لا يجد ما يعوقه أو يعرقله إلا في حدود ضيقة على مستوى المناطق المحيطة بأي من الدول المرشحة لمنافستها مستقبلا .

وبدأ المفكرون والساسة في أمريكا في البحث عن استراتيجية جديدة لهذا الوضع الجديد ، ويمكن أن نميز هذه المرحلة بين فترتين فيها كالآتي :

الفترة الأولى : إعادة رسم الاستراتيجية والبحث عن عدو جديد « تمتد من ١٩٩١م إلى ١٩٩٦ م » .

ولقد وجدت أمريكا نفسها في بداية هذه المرحلة تنغمس في منطقة الخليج لإنهاء مغامرة صدام حسين باحتلال الكويت في أغسطس ١٩٩٠م وللحفاظ على هيمنتها على البترول كسلعة استراتيجية .

وبالمنطق الأمريكي لم يكن هناك خيار آخر غير التدخل العسكري أمام صانع القرار الأمريكي ، ومن هنا تواكب مع هذا التدخل الأمريكي طرح قضية الاستراتيجية الأمريكية الجديدة وبدأ البحث عن العدو البديل للشيوعية .

وبدا أن القيادة الأمريكية بقيادة جورج بوش الأب في هذا الوقت كانت تعيش مرحلة الارتباك الناجمة عن الانتقال إلى نظام القطب الواحد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، وتبدى ذلك في تبشير الرئيس الأمريكي بنظام عالمي جديد يقوم على العدالة والحرية ؛ وهي دعوة حاول ترجمتها من خلال التدخل في الشرق الأوسط ودفع أطراف الصراع العربي الإسرائيلي إلى الجلوس على مائدة المفاوضات في مؤتمر مدريد للسلام ، وأيضا التدخل الأمريكي في الصومال لإنهاء حالة الحرب الأهلية الذي سرعان ما انتهى إلى انسحاب سريع مهين بعد تكبد أمريكا بعض الخسائر البشرية في صفوف جنودها .

وما إن اعتلى « **بيل كلينتون** » سدة الرئاسة في سنة ١٩٩٢م حتى بدأت الإدارة الديموقراطية الجديدة تتجه لتبني استراتيجية جديدة في إطار الاستجابة لبعض الأطروحات التي طرحها عدد من المفكرين الأمريكان والتي يمكن الإشارة إليها عبر استعراض أهم ثلاثة كتب صدرت بأمريكا في خلال عقد التسعينات:

○ **الكتاب الأول** ، وصاحبه « ريتشارد نيكسون » الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية وترجم إلى العربية بعنوان : « **الفرصة السانحة** » ، وفكرته الأساسية تدور حول أن : الانتصار الذي حققته أمريكا على الاتحاد السوفيتي ولد فرصة سانحة للهيمنة الأمريكية على العالم وللسيادة الكونية وتحقيق النصر الحاسم على شتى المنافسين ، وأخذ

في رسم الدوائر المحتملة للأخطار وأشار فيما يتعلق بالعالم الإسلامي بضرورة التفريق بين الحكومات الإسلامية المعتدلة حيث يمكن التعاون معها والحركات الأصولية المتشددة التي تحتاج لمعاملة حاسمة ضدها ، مع إمكانية التلاقي مع أي طرف إذا كانت المصلحة الأمريكية تستدعي هذا .

وبهذا شن « نيكسون » التفكير الاستراتيجي الجديد في اتجاه الانتصار الشامل الدائم اغتناما للفرصة السانحة .

○ **ثم يأتي الإسهام الثاني** من « فرانسيس فوكوياما « أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة هوبكنز وذلك من خلال كتابه الشهير [1] « **نهاية التاريخ** » « **وخاتم البشر** » الذي صدر في عام ١٩٩٢م في ٣٧٩ صفحة .

والفكرة الأساسية للكتاب تنطلق من أن التاريخ الذي يفهم على أنه تطور المجتمعات الإنسانية من خلال أشكال مختلفة من الحكومات قد بلغ ذروته متمثلا في الديموقراطية المعاصرة ورأسمالية اقتصاد السوق ، وهذا يعني أنه لا حاجة لإنتاج المزيد من الأفكار ، فنهاية التاريخ تعني نهاية تاريخ إنتاج الأيدلوجيات بعد انتصار الديموقراطية على ما سواها .

وهذا الطرح كان يصب في إتجاه اعتبار القيم الديموقراطية .

وبالطبع بالتطبيق الغربي هي التي يجب أن تسود ، وعلى أن الأيدلوجيات الأخرى أن تفسح لها الطريق .

وكان تناوله للإسلام ينحو إلى وصفه بالشمولية وأنه لا يمكن وجود مثال للدولة الديموقراطية في العالم الإسلامي إلا في حالة تركيا لأنها تخلت صراحة عن تراثها الإسلامي . وهو بهذا يضع الإسلام في خانة العداء مع المفاهيم الليبرالية المتفوقة .

---

(١) ترجع الأصول الأولى لهذا الكتاب إلى محاضرة ألقاها « فوكوياما » في مركز جون.م.أولين سنة ١٩٨٩م ثم نشر كمقال في ١٥ صفحة تحت عنوان : هل هي نهاية التاريخ ؟ بمجلة : « The National Interrestg » في صيف عام ١٩٨٩م . راجع مقدمة كتاب « نهاية التاريخ » لفرانسيس فوكوياما : مركز الأهرام للترجمة والنشر طبعة ١٩٩٣م .

○ **أما الكتاب الثالث** ، وهو لعالم السياسة الأمريكي « **صموئيل هنتجنتون** » الأستاذ بجامعة هافارد والصادر [١] في سنة ١٩٩٦م تحت عنوان « **صدام الحضارات** » والذي عرض فيه فكرته عن وجود حضارات متنوعة في العالم ، وأن هذه الحضارات الخلافات بينها أساسية وغير قابلة للحل ، ومن ثم ستقع الصراعات عند الخطوط الفاصلة بينها وأن على أنصار الحضارة الغربية أن لا يتدخلوا في هذه الصراعات إلا إذا كانت تنطوي على تعريض المصالح القومية الحيوية للخطر .

واعتبر « هنتجنتون » أن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك مرتين على الأقل - يقصد بها الفتوحات الإسلامية الأولى والفتوحات العثمانية - وأن المشكلة الحقيقة للإسلام ليست الأصولية الإسلامية لكنها الإسلام في حد ذاته لأن له مشاكل مع الحداثة .

وبهذه الكتب الثلاثة أصبح مطروحا - وبقوة - على ذهن صانع القرار الأمريكي استراتيجية النصر الحاسم وسيادة الديموقراطية وصدام الحضارات ، ومن هنا بدأ يظهر مفهوم العولمة [٢] بدلا من النظام العالمي الجديد ، وكان مفهوم العولمة في حقيقته يعني « الأمركة » إذا جاز التعبير ، وإن كان جرى تسويقه بصورة جذابة على أساس أنها تعني وجود نظام تشارك جميع دول العالم في إنشائه ، يتركز على حرية تداول السلع عبر السوق المفتوح « العولمة الاقتصادية » ، وحرية تداول الأفكار والمعلومات « العولمة الإعلامية والمعلوماتية » وتعميم تبني النظام الديموقراطي ، ومفاهيم حقوق الإنسان وتحرير المرأة وحقوق الأقليات .. إلخ

والحقيقة هي أن العولمة تعني تعميم نظم وقيم معينة تؤدي لقيام نظام يسمح بالتدفق الحر للسلع والخدمات والاتصالات والأفكار بغير حدود ودون قيود ، وبما يخدم ترويج قيم

(١) الأصول الأولى لهذا الكتاب ترجع إلى مقالة نشرها الكاتب في مجلة : فورين أفيرز في سنة ١٩٩٣م تحت عنوان : « صدام الحضارات » .

(٢) راجع مفهوم العولمة في : التقرير الاستراتيجي العربي لعام ١٩٩٧م ، العولمة والإقليمية للأستاذ أسامة المجدوب الدار المصرية اللبنانية الطبعة الأولى يناير ٢٠٠٠م ص [٣٦] ، كتاب « الفجر الكاذب » « أوهام الرأسمالية العالمية » لجون جري ، الناشر المجلس الأعلى للثقافة ، مكتبة الشروق الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

الحضارة الغربية ويحقق المصالح الأمريكية والغربية ، بل أن البعض ذهب إلى أن اعتبار العولمة استعمار جديد يليق بمفاهيم وأساليب القرن الحادي والعشرين .

وهكذا وجدت رؤية المفكرين الأمريكان طريقها إلى التطبيق ، وكانت تلك الرؤية تعني إحكام السيطرة على العالم من خلال مفهوم العولمة ، ومصادرة المستقبل لصالح أمريكا لعقود ممتدة آتية ، ولكن كانت الاستراتيجية الأمريكية لتحقيق ذلك تعتمد على وسائل اللطف لا العنف ، من خلال دعم الآليات التي تتحقق من خلالها أهداف العولمة والتي تمثلت في منظمة التجارة العالمية ، صندوق النقد الدولي ، البنك الدولي ، الشركات المتعددة الجنسيات ، أو عابرة القومية ، وفي إطار من التفعيل الشكلي للشرعية الدولية عبر مجلس الأمن الدولي الذي صار في الحقيقة مجلس الأمن الأمريكي .

وهذا يعني أن الفترة الممتدة من ١٩٩١م إلى ١٩٩٧م شهدت جدلا كبيرا في أمريكا حول الاستراتيجية الجديدة وتحديد العدو الجديد ، وتقييم الموقف من الإسلام أو الخطر الأخضر كما يسمونه ، وأسهم في طرح هذه المسألة بإلحاح التفجير الذي وقع في مركز التجارة العالمي في فبراير ١٩٩٣م واتهم فيه بعض المنتمين للتيار الإسلامي .

ورغم هذا فلم تشهد الإستراتيجية الأمريكية تغيرا انقلابيا في اتجاه التصعيد ضد كل ما هو إسلامي ، فلقد شهدت هذه الفترة عددا من المواقف الأمريكية المنسجمة مع الطبيعة الأمريكية البراجماتية [1] المصلحية أو النفعية ؛ وذلك عندما دعمت أمريكا الجهود

(١) البراجماتية : تعني العملية أو النفعية أو المصلحية حيث الحكم على الأشياء ، أو الأعمال بالصواب أو الصحة يكون على أساس ما تحقق من نفع أو عائدا أو مصلحة وهي فلسفة ابتدعتها العقلية الأمريكية على يد وليام جيمس وجون ديون .

يقول رضا هلال في كتاب : « تفكيك أمريكا » ، لم تبدع الحضارة الأمريكية فلسفات إلا الفلسفة البراجماتية ، على يد « وليام جيمس » مؤسسها وجون ديون تلميذه الذي عمدها في أمريكا .

وتقوم البراجماتية في المقام الأول ، على الرفض المنهجي لكل الأحكام المسبقة وكل المنظومات الجاهزة النظرية والمكتملة ، ويقول وليام جيمس عن البراجماتية ، إنها تحويل النظر بعيدا عن الأشياء الأولية : المبادئ والنواميس ، والحتميات المسلم بها ، إلى الأشياء النهائية : الثمرات والنتائج والآثار والوقائع والحقائق . وعنده أن « الحقيقي » ليس سوى النافع في التفكير ، كما أن « الصحيح » ليس سوى النافع في المسلك . =

المبذولة لنيل دولة البوسنة والهرسك حقها في الاستقلال عن يوغوسلافيا ، وتدخلت عسكريا لحفظ الأمن بها زمن التطهير العرقي الذي كان يجري على قدم وساق .

وجاء أيضا العرض الأمريكي على نظام طالبان بتقديم الدعم لحركة طالبان نظير التوافق الاستراتيجي بينهما كدليل آخر على سيادة المنطق النفعي على الاستراتيجية الأمريكية ، وهذا المنطق النفعي ذاته هو الذي كان يسهم في تشكيل الموقف الأمريكي السلبي اتجاه إيران أو النظام السوداني ، فضلا عن رفض أمريكا للتوجه الإسلامي للبلدين .

واستمر هذا المنطق الأمريكي سائدا حتى بزوغ الفترة الثانية من هذه المرحلة والتي سنعرض لها الآن .

الفترة الثانية : « التصعيد والضغوط المتزايدة » من ١٩٩٦م إلى الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م :

وشهدت هذه الفترة بدء عمليات تنظيم القاعدة في السعودية لإنهاء الوجود العسكري الأمريكي بالأراضي المقدسة ، ثم أعلن زعيم القاعدة عن قيام الجبهة العالمية لقتال الصليبيين واليهود ، ثم الإعلان عن فتوى قتل المدنيين الأمريكان في أي مكان وزمان ، واتبع ذلك القيام بعدد من العمليات العنيفة ضد أهداف أمريكية في اليمن والسعودية

= أما « جون ديون » ، فيرى أن النظرية لا تفيد إلا كمرشد ، ولا تكون صحيحة إلا إذا أدت إلى عمل نتائجه مثمرة . كما أن كل شيء لابد من اختباره وسبر غوره وفقا لفاعليته .

وفي التربية يؤكد ديون أن المرء لا يعلم حقا إلا ما يقوم به بنفسه ، ولا يجوز له أن يتقبل من معلميه أي شيء لم تجرمنا مناقشته أو تحليله (...)

وترتبط فكرة البراجماتية عند الأمريكي بفكرة المصلحة ، فالأمريكي لا يهتم إلا بما يمثل له مصلحة . وهو يصادق ويشارك ويعادي من له معهم مصلحة دونما اعتبار لاتفاقه أو اختلافه معهم في المثل والقيم الأخلاقية فأمريكا ، على استعداد دائم لحماية نظم عميلة وديكتاتورية ، كما حدث في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط ، لأن لها مصالح معها بالرغم من ادعائها - أمريكا - تشجيع الديموقراطية وحماية حقوق الإنسان كما أنها على استعداد لخوض حروب تجارية مع دول تتفق معها في القيم السياسية « اليابان مثلا » من أجل مصلحتها ، بالرغم من إدعائها تشجيع حرية التجارة . وعندما تمثل حرية التجارة مصلحتها فإنها لا تتورع عن أن تدوس الحريات السياسية ، كما هو حادث في علاقات أمريكا مع الصين » ا.هـ .

راجع تفكيك أمريكا ، الأستاذ « رضا هلال » ، الشركة الإعلامية للنشر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٩٨م .

وكينيا وتنزانيا ، مما جعل خطر القاعدة يتعاظم بصورة غير مسبوقة مما نجم عنه رد فعل أمريكي ضاغط على دولتي السودان وأفغانستان ، وتم قصف بعض المواقع في السودان بزعم وجود مصنع لإنتاج الأسلحة الكيميائية وتبعيته لأسامة بن لادن ، ثم قصف عدد من المواقع في أفغانستان بزعم أنها معسكرات تدريب تابعة للقاعدة .

وبدأت أمريكا في اتباع استراتيجية الضغوط المتزايدة على حركة طالبان عندما رفضت الحركة تسليم أسامة بن لادن وتنوعت هذه الضغوط بدءا من الضغوط الاقتصادية عن طريق الأمم المتحدة وإصدار قرارات من مجلس الأمن بمنع رحلات شركة الطيران الأفغانية وحظر إرسال أي أسلحة لنظام طالبان .

ومع تزايد الضغوط الأمريكية سواء عن طريق قرارات مجلس الأمن أو عن طريق باكستان بدا أن الصدام قادم لا محالة .

وهكذا شهدت نهاية هذه المرحلة استمرار استراتيجية الضغوط المتبادلة بين الطرفين ، وأصبح هدف مواجهة الإرهاب الدولي محل نظر لدى الإدارة الأمريكية بسبب تتابع هذه العمليات ، والتحريض الإسرائيلي لمواجهة الأصولية الإسلامية المدعوم من اللوبي اليهودي بأمريكا ، وتزايد مطالبات العديد من الدول الشرق أوسطية والإسلامية لوضع حد للإرهاب .

لكن لا ننسى في هذا المقام دور اليمين المسيحي الأصولي الذي بدأ ينمو في داخل الولايات المتحدة الأمريكية وتعاظم دوره في التأثير على التوجهات الخارجية والداخلية للإدارة الأمريكية ، ونشأ تحالف بين اللوبي اليهودي واليمين المسيحي الأصولي انصب تأثيره على قضية الصراع العربي الإسرائيلي ، وإيجاد ذريعة للتدخل في شئون الدول المختلفة خاصة الإسلامية تحت عنوان : « مساندة الأقليات المضطهدة في العالم » وهذه مسألة سنزيدها تفصيلا بعد قليل .

○ ○ ○

المرحلة الثالثة :

من أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م وإلى يومنا هذا

« استعادة الهيبة واستباق الأخطار » .

وتبدأ هذه المرحلة بحالة الذهول التي انتابت أمريكا ساسة وشعبا من جراء الهجوم الذي شنته بعض الخلايا التابعة للقاعدة على عدة أهداف على الأراضي الأمريكية بواسطة عدد من الطائرات المختطفة ، والذي استهدف الاصطدام ببرجي مركز التجارة العالمي بنيويورك مما أدى إلى تدميرهما ، كما استهداف الاصطدام بوزارة الدفاع الأمريكية – البنتاجون – مما أدى إلى دمار واسع بها .

جاء هذا الهجوم في ظل اعتلاء الحزب الجمهوري سدة الحكم بعد فوز مشكوك في صحته لمرشحه جورج دبليو بوش ، والذي قرر على الفور في تصريح له : « إنها حرب صليبية جديدة » ، ثم عاد وادعى أنه لم يقصد هذا المعنى وأن المقصود أنه بصدد حرب عادلة على الإرهاب .

لقد كان الحدث في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م مدهشا ، ومثيرا للتساؤلات على كل المستويات ، فلم يسبق استهداف الأراضي الأمريكية بعمل بهذه الضخامة ، حتى الاتحاد السوفيتي لم يجرؤ على القيام بمثل هذا العمل إبان اشتداد الحرب الباردة بينه وبين أمريكا .

ومن هنا تتابعت التفاعلات تحليلا وتفسيرا ، ولنقتنص من بين هذه التفاعلات بعض النماذج المعبرة عما أثارته أحداث الحادي عشر من سبتمبر من أراء واتجاهات :

قال أ.د . كوخ عمدة نيويورك الأسبق : « لم أعرف في ديانة أخرى يهودية أو مسيحية أنها تكافئ من يقتل غيره بجائزة قوامها ٧٢ عذراء ، إن المشكلة الأساسية في الإسلام وليست غيره » ا.هـ .

وإذا تابعنا رصد مواقف فرانسيس فوكاياما ، وصموئيل هنتجنتون لمعرفة آثار زلزال الحادي عشر من سبتمبر على رؤاهم التي سبق ذكرها ، فسنلحظ كيف أثرت تلك الأحداث في تأكيد رؤاهم السلبية تجاه الإسلام ، ولنبدأ بمطالعة ما كتبه فرانسيس فوكوياما في مقال له نشر [1] بالنيوزويك [عدد ديسمبر ٢٠٠١م ، فبراير ٢٠٠٢م] .

(١) نشرته جريدة الأهرام مترجما في ٢٩ / ١٢ / ٢٠٠١م [ص : ١٢] .

بعنوان : الفاشية الإسلامية ، حيث أكد صدق رؤيته السابقة التي طرحها في كتابه « نهاية التاريخ » وانتهى إلى أن الإسلام لديه مشاكل مع الحداثة ويجب أن يتطور الإسلام ليصل لوضع سلمي معها خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية والتسامح الديني . ومع ضرورة تغيير المناهج الإسلامية كي لا يتجدد الصراع بين الإسلام والغرب .

يقول فوكوياما في مقاله[1] : « إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة ، ومع كل الحكمة التي

(١) نورد هنا بعض ما ورد في مقالة فوكوياما لما فيه من دلالات هامة لفهم كثير من اتجاهات الاستراتيجية الأمريكية التي صيغت بعد ذلك ، يقول فوكوياما في مقاله : « ويختلف العالم الإسلامي اليوم عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم فهو وحده ولد تكرارا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية ترفض لا السياسات الغربية فحسب بل المبدأ الأكثر أساسية للحداثة التسامح الديني ، واحتفلت هذه المجموعات بهجمات الحادي عشر من سبتمبر لأنها قهرت مجتمعا اعتقدت أنه مجتمع فاسد من جذوره ولم يكن هذا الفساد يقتصر على الإباحية والمثلية الجنسية وحقوق المرأة فحسب كما هي موجودة في الغرب ولكنه نجم من وجهة نظرها من العلمانية نفسها وما يكرهونه هو أن الدولة في المجتمعات الغربية يجب أن تكرس التسامح الديني والتعددية بدلا من خدمة الحقيقة الدينية .

ثم يقول : إن الصراع الحالي ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب ولا ضد الإسلام كدين أو حضارة ولكنه صراع ضد الفاشية الإسلامية ، أي : العقيدة الأصولية غير المتسامحة التي تقف ضد الحداثة والتي انبثقت حديثا في أجزاء عديدة من العالم الإسلامي ، هنالك كتاب دراسي إجباري في الصف العاشر يشرح : « أنه يجب على المسلمين أن يخلصوا لبعضهم بعضا وأن يعتبروا الكفار أعداءهم ، ويتعلق السبب الأخير بالإضافة إلى المناهج لانطلاق الفاشية الإسلامية في الثمانينيات والتسعينيات » مسائل جذرية كالفقر والركود الاقتصادي والسياسات السلطوية في الشرق .

ثم يقول : والتطور الثاني والأهم ينبغي أن يأتي من داخل الإسلام نفسه فعلى المجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية والتسامح الديني .

ثم يقول : إن الصراع بين الديموقراطية الليبرالية الغربية والفاشية الإسلامية ليس صراعا بين نظامين حضاريين يتمتعان بقابلية البقاء نفسها يستطيع كلاهما ركوب العلم والتكنولوجيا وخلق الثروات والتعامل مع التنوع الموجود في عالمنا المعاصر » . ا.هـ .

تتمتع بها المجتمعات الإسلامية فإنها يمكن أن تنجح بوجود ديموقراطية عاملة واحدة هي تركيا فقط » .

أما صموئيل هنتنجتون ففي مقال منشور له بالنيوزويك تحت عنوان « عصر حروب المسلمين » أكد على أن عناصر صدام الحضارات ما زال متوفرا وأن حروب المسلمين قد احتلت مكان الحرب الباردة وأنه وفقا لما نشرت مجلة الأيكونومست أن المسلمين مسئولين عن ١١ - ١٢ حادثة إرهابية من إجمالي ١٦ من حوادث الإرهاب الدولي الرئيسية التي حدثت من سنة ١٩٨٣م إلى سنة ٢٠٠٠م وأن هناك خمس دول إسلامية من بين الدول السبع التي وضعتها وزارة الخارجية على قائمة الدول الداعمة للإرهاب » أ.هـ.

ويقول هنتنجتون[١] : « ومع ذلك فإن عصر حروب المسلمين له جذوره في أسباب أكثر عمومية ، وهذه الأسباب تعني العقيدة الإسلامية ، والقناعات الإيمانية في الإسلام فإن هذه العقيدة وتلك القناعات الإيمانية مثلها في ذلك مثل ماضي المسيحية حيث يبقى على معتنقي هذا الدين أو ذاك أن يستخدموا هذه العقائد والقناعات الإيمانية لتبرير حالة السلام أو حالة الحرب كما يشاءون ، إن أسباب حروب المسلمين المعاصرة تكمن في السياسات وليس في العقائد الدينية للقرن السابع » ا.هـ .

وفي تحليله للأسباب التي تولد العنف فيرجعها إلى فشل الحكومات في توفير الاحتياجات الاقتصادية لشعوبها مع قمعها للحريات مما يولد العنف تجاهها وتجاه الحكومات الغربية التي تدعم مثل هذه الحكومات بالإضافة إلى الدور الذي تلعبه أساليب القمع والسيطرة من قبل حكومات غير إسلامية كالهند وروسيا الاتحادية وإسرائيل ضد السكان المسلمين بها الذين يطمحون للاستقلال في توليد العنف على مستوى العالم .

وفي حديث له أكثر دلالة عبر هنتنجتون [٢] عن رؤيته بشكل أوضح ذاكرا أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر وحدت بين أمريكا وأوروبا بعد ظهور بوادر الخلاف بينهما ،

(١) مقال : « عصر حروب المسلمين » لصموئيل هنتجنتون والمنشور في الأهرام ٢٠٠١/١٢/٢٩م [ص : ٦٢] مترجمًا عن النيوزويك عدد ديسمبر ٢٠٠١ - فبراير ٢٠٠٢م .

(٢) أجرى هذا الحوار ناثان جارلز مع هنتنجتون لنشره وجهة نظر عالمية ، ونشر مترجما في جريدة الشرق الأوسط السعودية عدد رقم ٨٣٦٥ [ص : ٧] في ٢٣ / ١٠ / ٢٠٠١ م .

كما أنه ينبغي على أمريكا والغرب تحقيق أعظم درجة من التكامل السياسي والاقتصادي والعسكري ، وهذا يستدعي استيعاب الدول الغربية في وسط أوروبا واليابان ، وقبول روسيا كقوة إقليمية ، وأن يحافظ على التفوق التقني والتكنولوجي والعسكري التقليدي وغير التقليدي على الحضارات الأخرى ، وأن يفرضوا القيود عليها بالنسبة للأقطار الإسلامية والصين ، ويختتم حواره بالقول : « وبما إن اليهودية والمسيحية والإسلام كلها أديان توحيدية فإن السؤال العلمي هو : هل هي أديان توحيدية متسامحة أم توحيدية متعصبة ، لقد تصرفت الأديان الثلاثة بطريقة مختلفة في أزمنة مختلفة ولم يكن التسامح صفة للمسيحية خلال الحملات الصليبية ولكنه كان صفة للإسلام في الأندلس وفي الوقت الراهن يبدو الإسلام أقل الأديان التوحيدية تسامحا » ا.هـ .

ولقد انتهجت الإدارة الأمريكية بقيادة جورج بوش الابن التي يغلب عليها الارتباط بدوائر اليمين المسيحي الأصولي الاستراتيجية الجديدة متمثلة في :

- إن مواجهة الإرهاب والقاعدة لن تكون عن طريق الأطباء وعربات الإسعاف – بقصد معالجة آثار أي عمليات إرهابية – لكن عن طريق القدرات العسكرية المتفوقة لأمريكا .
- على العالم أن يحدد هل هومعنا أم ضدنا ؟ ومن ليس معنا فهو مع الإرهاب .
- إن أمريكا ستواجه الأخطار المحتملة مستقبلا سواء كان مصدرها الإرهاب أو دول محور الشر – أو الدول المارقة في تعبير آخر – وذلك من خلال انتهاج استراتيجية الحرب الاستباقية – أي استباق الأخطار – أو استراتيجية الحرب الوقائية ، وبهذا قررت أمريكا مواجهة الأعداء المحتملين خارج حدودها ، وحددت الأجهزة الأمريكية الأعداء الآنيين والمحتملين على النحوالتالي :

١- **الإرهاب** : تم إصدار لائحة أمريكية لتحديد الجماعات التي توصف بالإرهابية وتأتي منظمة القاعدة على رأسها .

٢- **الدول المارقة « دول محور الشر »** : وتشمل هذه القائمة دولا هي : إيران ، وسوريا ، وكوريا الشمالية ، وليبيا ، والسودان ، والعراق ، وكوبا . والتي تم تصنيفها على أساس المزاعم الأمريكية المتعلقة بدعم الإرهاب أو امتلاك أسلحة دمار شامل كيماوية أو نووية .

وأعلنت أمريكا في استراتيجيتها الجديدة أنها سوف تتصرف بمفردها سواء لنشر الحرية وتسييد قيم الديموقراطية في العالم أو لمواجهة الإرهاب والأخطار المحتملة .

ومعالم هذه الاستراتيجية جاءت واضحة دون مواربة في وثيقة استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية التي وقعها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في ٢٠٠٢/٩/٢١م أي : بعد قرابة عام من أحداث الحادي عشر من سبتمبر [١].

ولنقتطف الفقرة التالية عن هذه الوثيقة لعلها تلقي الضوء على معالم تلك الاستراتيجية « إن الولايات المتحدة الأمريكية هي وحدها المسئولة عن أمن العالم وحريته ، بل إنها مصدر القيم الوحيد ، لذلك ستعمل على تسيير قيمها في كل أرجاء العالم من خلال عملية تغيير واسعة المدى سياسية واقتصادية واجتماعية .

إن الولايات المتحدة لن تسمح بتحدي تفوقها العسكري العالمي وأن تكون قدراتها العسكرية قوية بما يكفي لمنع أي منافسين محتملين لقوتها العسكرية من بناء قوتهم العسكرية بصورة يمكن أن تزيد أو تتساوى مع قوة الولايات المتحدة . وأننا لن نتردد بالتصرف وحدنا إذا دعت الضرورة لممارسة حقنا في الدفاع عن النفس واستباق الهجوم بهجوم وقائي » ا.هـ .

وبالنسبة للعالم الإسلامي فقد حرصت بعض الدوائر في الإدارة الأمريكية على التمييز بين الإسلام والإرهابيين ، ولكن هذا لم يكن نفس رأي العديدين في دوائر الفكر والسياسة سواء داخل أمريكا أو في أروقة الإدارة الأمريكية الحاكمة أو على الضفة الأخرى من المحيط الأطلنطي .

وهكذا صار العالم الإسلامي في بؤرة اهتمام المعنيين برسم الاستراتيجيات في الإدارة الأمريكية ، والتي طرحت رؤيتها متأثرة بآراء كبار المفكرين والساسة مثل فوكوياما وهنتنجتون والتي أشرنا إليها من قبل ؛ ويمكن أن نقف على أبعاد هذه الاستراتيجية من

(١) راجع نصوص هذه الوثيقة وتحليلا لها في مقال : الوثيقة الكاملة للسياسة الخارجية الأمريكية للأستاذ عاطف الغمري والمنشور بجريدة الأهرام المصرية في ٢ / ١٠ / ٢٠٠٢م [ص : ١٠] ، ومقال : الإعلان الإمبراطوري الأمريكي للأستاذ السيد ياسين المنشور بالأهرام في ٣ / ١٠ / ٢٠٠٢م [ص : ١٣] .

خلال ما قالته كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومي في إدارة جورج بوش الابن [1] : « إن أمريكا بعد الانتهاء من الملف العراقي ستقوم بتحرير العالم الإسلامي من أجل إحلال الديموقراطية ومسيرة الحرية في المنطقة وأن الإدارة الأمريكية تملك التفوق العسكري الذي لم تملكه أي دولة في التاريخ وهو ما يمكنها من استثمار هذا التفوق لتوفير محيط تزدهر فيه القيم الأمريكية » ا.هـ .

إذن عنوان هذه الاستراتيجية هو : « تحرير العالم الإسلامي » .

والسؤال الذي يقفز إلى الذهن : تحرير ماذا ؟ أهناك استعمارا قائم ينبغي طرده ؟ أم احتلالا غاشم ينبغي سحقه ؟ وإذ لم يوجد هذا أو ذاك فما المقصود بتحرير العالم الإسلامي ؟

يمكن أن نبين ملامح استراتيجية « تحرير العالم الإسلامي » التي أشارت إليها كونداليزا رايس في النقاط الآتية :

١- القضاء على حركة طالبان وحرمان القاعدة من المأوى الآمن لها .

٢- عولمة الملاحقة الأمنية لتنظيم القاعدة وأي تنظيمات إسلامية أخرى تعتبرها أمريكا مهددة لها أو لمصالحها أو لحلفائها .

٣- دفع دول العالم الإسلامي إلى تبني القيم الأمريكية والغربية والتحرر من قيم وتقاليد الثقافة الإسلامية والتي تولد - في اعتقادهم - العنف ؛ وهو ما يستوجب تغييرا في المناهج التعليمية القائمة التي تشجع على ثقافة التطرف وهو ما يعد ترجمة لرؤية فوكوياما في مقاله الذي سبق الإشارة إليه .

٤- تتريك العالم الإسلامي وذلك على حد قول بعض أركان الإدارة الأمريكية ، أي تعميم النموذج التركي الذي يسمح بوجود تيار إسلامي في الساحة السياسية أقرب للعلمانية منه للإسلام كحل يسمح بالتنفيس عن آمال هذا التيار ويسحب البساط من تحت أقدام المتطرفين الإسلاميين .

---

(١) راجع جريدة الأهرام الصادرة في ٢٠٠٢/١١/١٣م صندوق الدنيا نقلا عن حديث لها مع صحيفة الفايننشيال تايمز في ٢٠٠٢/٩/٢٣م .

٥- الضغط على الحكومات في الدول الإسلامية لانتهاج سياسة تسمح بملاحقة الإرهاب من ناحية وإتاحة الفرصة أمام الإسلاميين للمشاركة في الحياة السياسية من ناحية أخرى .

٦- الإسهام الأمريكي في حل بعض المشكلات السياسية في العالم الإسلامي مما يحسن صورة أمريكا لدى الرأي العام الإسلامي وبما لا يخل بالمصالح الأمريكية .

وهكذا تأتي هذه الاستراتيجية في طورها الأخير مستهدفة أحداث تغيير عميق سواء في وجود التيارات الإسلامية أو الهوية والقيم الإسلامية في ظل حشر الأنف الأمريكي في شئون دول العالم الإسلامي تحت مظلة الدفاع عن قيم الديموقراطية وحقوق الإنسان والطفل والمرأة تارة ، وملاحقة الإرهاب تارة أخرى ، وذلك في ظل تحقيق استراتيجية الهيمنة الأمريكية على العالم بأسره .

إذا كان كل ما سبق يمثل استعراضا مفصلا لتطور الاستراتيجية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي وقضاياه ، فيمكن الآن استخلاص عدد من النتائج :

١- أن الإستراتيجية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي وقضاياه لا تسير دائما على منوال واحد ، وهي تتلون وفقا لما تقتضيه المصالح الأمريكية .

٢- إن توجهات الاستراتيجية الأمريكية تجاه قضايا العالم الإسلامي طوال الستين عاما الماضية - في أغلبها - أتت سلبية وظالمة .

٣- إن التعامل الخاطئ مع الاستراتيجية الأمريكية في بعض المواقف أدى إلى ضياع بعض الفرص الجيدة التي كان يمكن توظيفها لمصلحة الشعوب والدول الإسلامية .

٤- إن الاستراتيجية التي تبنتها القاعد تجاه أمريكا والصليبيين واليهود أسهمت في تسريع صياغة استراتيجية أمريكية أشد سلبية تجاهها وتجاه العالم الإسلامي .

وخلاصة القول : أن استناد القاعدة على سلبية الإستراتيجية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي وقضاياه لتبرير خيارها الاستراتيجي لا يصح الاحتجاج به أو الاستناد إليه ، لأن استراتيجية القاعدة هي في الحقيقة أهم عامل أسهم في تسريع وصياغة تلك الاستراتيجية الأمريكية السلبية ؛ لأن استراتيجية القاعدة أهدرت الفرص السانحة كي تستفيد من معطيات الوضع الدولي وتوجهات الاستراتيجية الأمريكية نحو منطقة وسط

آسيا بما يحقق المصالح الأفغانية بدلا من ابتناء استراتيجية تؤدي إلى الإطاحة بدولة طالبان الإسلامية ، وهذه مسألة سنزيدها بيانا بعد قليل .

ب – القضية الثانية : هل كانت الأمة الإسلامية بصدد حرب صليبية استدعت صياغة القاعدة لاستراتيجية مضادة ؟

مع إعلان أقطاب تنظيم القاعدة عن قيام الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين ، استنتج البعض أن القاعدة بصدد إشعال حرب على أساس ديني بوضع العالم الإسلامي « الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين « في مواجهة عسكرية مع العالم اليهودي المسيحي « الصليبي » .

وسرعان ما جاءت العمليات والتصريحات المنسوبة لأقطاب القاعدة لتجعل هذا الاستنتاج حقيقة واقعة .

وفي إطار الدفاع عن استراتيجية القاعدة تلك ، ذهب البعض إلى أن هذه الاستراتيجية ما هي إلا رد فعل لحرب صليبية مستترة أو معلنة على الإسلام شعوبا وأقليات ودولا وحركات ، تتم تارة باسم محاربة الإرهاب ، وتارة تتستر بحماية الأقليات ، وأخرى بالدفاع عن حقوق الإنسان .

فهل كانت حقا حرب صليبية معلنة ضد الإسلام في أواسط التسعينات من القرن الماضي حينما وضعت القاعدة استراتيجياتها تلك ؟

لا شك في أن هناك شواهد يمكن أن تؤيد مثل هذا التحليل لكن في نفس الوقت هناك شواهد تقف ضده وتمنع القول بوجود حرب صليبية يهودية على الإسلام والمسلمين آنذاك .

ولنستعرض تلك الشواهد المتعارضة :

حرب صليبية ضد الإسلام

« شواهد متعارضة »

والشواهد التي يمكن أن تدفع للقول بوجود حرب على الإسلام مستترة قد تتمثل - لدى القائلين بها - في الآتي :

١- دعاوى إحلال الإسلام كعدو بديل بعد انتهاء الخطر الشيوعي والتي راجت بعد انتهاء الحرب الباردة في ١٩٩١م خاصة في أمريكا .

٢- بروز ظاهرة الإحياء الديني في الدول الغربية وأمريكا وزيادة قوة اليمين الأصولي المسيحي ، والتي ترجمت نفسها في مظاهر عديدة مجتمعية ثقافية وإعلامية وعلى سبيل المثال ففي أمريكا يمكن ملاحظة مظاهر هذا الإحياء من خلال الإحصائيات الآتية :[١]

« كشفت استطلاعات جالوب أن حوالي سبعين مليونا من الأمريكيين يشاهدون الشبكات التلفزيونية الإنجيلية « الكنائس المرئية » التي بلغ عددها ١٠٤ محطة تلفزيونية ، إضافة إلى ١٠٠٦ قناة تلفزيونية بنظام الشفرة - الكابل - . وفي إطار ذلك الإحياء الإنجيلي تزايد عدد دور النشر المسيحية إلى ١٣٠٠ دار نشر متخصصة في العناوين المسيحية ، إضافة إلى ٧ آلاف مكتبة لتوزيع الكتب المسيحية ، وتقدر مبيعاتها بحوالي ٣ مليارات دولار سنويا . ونشأت صناعة للموسيقى المسيحية تشمل موسيقى البوب والروك والراب والميتال وتقدر مبيعاتها بحوالي مليار دولار سنويا . كما انتشرت الدوريات الإنجيلية مثل « أسبوعية المسيحية اليوم » و « أسبوعية العالم » و « شهرية الوعاظ » إضافة إلى « الأشياء الجديدة » و « الأبوية المسيحية » و « التاريخ المسيحي » ، إلى جانب دوريات للرياضة والموسيقى ورعاية الكلاب على الطريقة الإنجيلية . ومع الإحياء الإنجيلي أصبحت هناك ٢٠ ألف مدرسة مسيحية ابتدائية وثانوية وألف كلية للتعليم بعد الثانوي ودخل الإحياء الإنجيلي إلى « السوق » بمنتجات « مسيحية » مثل القمصان ال تي شيرت ، والقبعات وأدوات المطبخ ولوازم الرحلات وبرمجيات الكمبيوتر .

(١) راجع تلك الإحصائيات في : « تفكيك أمريكا » [ص : ١٢٣] .

واستفادت الأصولية من الثورة التكنولوجية ، حيث نشهد الآن على الإنترنت « المسيحية على الخط » . كما أصبحت الكنائس المختلفة لها خطوط على الشبكة الدولية .

وبهذا الزخم ، قرر الأصوليون الإنجيليون دخول « الحلبة السياسية » بعد أن جربوا ذلك في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٦٤م . ويعتبر عام ١٩٧٦م عام الإنجيليين بدخولهم « السياسة التصويتية » بدعم المرشح الرئاسي الديموقراطي جيمي كارتر والذي اعتبر نفسه « مسيحيا ولد ثانية » .

وبعد معارضة كارتر لصدور تشريع لمنع الإجهاض ، نشط اليمين الإنجيلي على المستوى المحلي بدلا من المستوى القومي لدعم المرشحين للكونجرس ، ومقاعد حكام الولايات . وتكونت شبكة قومية تحت مسمى « الأغلبية الأخلاقية » عام ١٩٧٩م لحشد ٣ ملايين ناخب لانتخابات عام ١٩٨٠م . وبالفعل أصبح الإنجيليون قوة تصوتية مؤثرة في فوز الرئيس ريجان وبعض أعضاء مجلس الشيوخ مثل جيس هيلمز وأوروى هاتسن في انتخابات ١٩٨٠م » أ.هـ

« وفي عام ١٩٩٢ تحولت حركة اليمين المسيحي للسيطرة على الكونجرس وكشف استطلاع شمل اللجنة القومية للحزب الجمهوري عام ١٩٩٣ ، عن سيطرة أجندة اليمين المسيحي على أعضائها ، حيث أيد ٩٢٪ الصلاة في المدارس ، وعارض ٩٣٪ الشذوذ الجنسي ورفض ٨٤٪ استخدام الأموال الفيدرالية في المدارس .

وفي انتخابات التجديد النصفي للكونجرس عام ١٩٩٤م ، سيطر الجمهوريون على مجلس الكونجرس للمرة الأولى منذ ما يزيد عن أربعين عاما .

وأصبح الإنجيليون حكام ولايات وأعضاء في مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وذلك ما تكرر في انتخابات التجديد النصفي للكونجرس وحكام الولايات عام ١٩٩٦م .

هكذا ، أصبحت الأصولية الإنجيلية قوة محركة في النظام السياسي الأمريكي ، بما أهلها لدور مؤثر في السياسة الخارجية والدفاعية الأمريكية « أ.هـ

٣- إصدار قانون التحرير من الاضطهاد الديني في أمريكا من خلال جهود اليمين المسيحي المتحالف مع اللوبي اليهودي ؛ كي يكون ذريعة للتدخل في شئون روسيا والصين والعالم الإسلامي بدعوى حماية المسيحيين من الاضطهاد .

٤- الدعم اللامحدود من أمريكا والغرب لأطراف غير إسلامية في صراعها ضد المسلمين مثل : فلسطين ، وجنوب الصومال ، وكشمير ، والشيشان .

٥- استخدام الضغوط المتنوعة ضد الدول التي تتبنى التوجه الإسلامي لإجبارها على التخلي عن خيارها هذا وذلك مثل : السودان ، وأفغانستان ، وإيران .

٦- الحرب الإعلامية المنظمة ضد القيم والمفاهيم الإسلامية تحت عنوان : حقوق المرأة والصحة الإنجابية والطفولة ...إلخ

٧- تصريحات الساسة والمفكرين بشأن العلاقة بين الإسلام والغرب[1] والتي تجلت في قول جورج بوش الابن بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عندما أعلن : أنها حرب صليبية جديدة ، فضلا عن أن الإدارة الأمريكية الحالية بقيادة جورج بوش الابن يسيطر عليها عدد من أنصار اليمين الأصولي المسيحي بأمريكا مما يجعل توجهاتها تنحو إلى منحى صليبي .

هذه أهم الشواهد التي يمكن أن يستدل بها على وجود حرب دينية موجهة ضد الإسلام والمسلمين سواء في العلن أو من وراء ستار ، لكن هل هذه الشواهد ترسم الصورة كاملة ؟

الحقيقة أن هناك شواهد أخرى لابد من ذكرها كي تظهر الصورة كاملة دون نقص أو خداع .

○ ○ ○

(١) عرضت جريدة الأهرام المصرية : مجموعة كتب أمريكية تتناول رؤية الأمريكيين للإسلام والمسلمين بتاريخ ٢٠٠٣/١/١٧م [ص : ١٣] للأستاذ / رضا هلال .

شواهد تشكك في وجود حرب دينية ضد الإسلام

أما الذين [1] يشككون في وجود مثل هذه الحرب ضد الإسلام فيسوقون عددا من الشواهد أهمها :

١- إن الولايات المتحدة الأمريكية خلال سنوات عقد التسعينات شاركت قواتها في عدد من النزاعات الدولية وكان تدخلها العسكري يصب في اتجاه دعم طرف إسلامي من أطراف النزاع ومن أمثلة ذلك :

- مساعدة الكويت والسعودية عسكريا ضد الخطر العراقي البعثي ؛ بعدما قامت القوات العراقية باحتلال الكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠م .
- التدخل العسكري الأمريكي هو الذي وضع حدا للمذابح التي استمرت أربع سنوات وقام بها الصرب ضد المسلمين في البوسنة والهرسك ؛ والتي بلغ عدد ضحاياها ٢٥٠ ألف مسلم في سنة ١٩٩٥م ، ولم يتم حسم المشكلة إلا بالتدخل الأمريكي وتوقيع اتفاقية دايتون سنة ١٩٩٥م .
- التدخل العسكري لحلف الأطلنطي بقيادة أمريكا في ٢٤ مارس سنة ١٩٩٩م ضد يوغسلافيا لإرغامها على وضع حد للتطهير العرقي في إقليم كوسوفا ذي الأغلبية المسلمة هو الذي أجبرها بعد ٧٩ يوما من القصف الجوي المتواصل على قبول اتفاقية رامبوييه ، وتوقيع اتفاق مع حلف الأطلنطي في ١٠ يونيه ١٩٩٩م بعد ثلاث سنوات عصيبة فشلت أوروبا في وضع حد للأزمة وعجز مجلس الأمن الدولي عن إنهائها .
- تدخل أمريكا في الصومال لوضع حد للحرب الأهلية هناك .

فهذه الحروب التي دخلتها أمريكا في مواجهة دول مسيحية « يوغوسلافيا الأرثوذكسية » ، أو داعمة لطرف إسلامي ضد آخر كالكويت والسعودية ، أو وضع حد لحرب أهلية مدمرة في الصومال ، يدل ذلك على عدم وجود مثل هذا التوجه للدخول في حرب لدى أمريكا أو الغرب ، وإلا فقد كانت الفرصة سانحة في كل هذه النزاعات للوصول

(١) ممن يشكك في إمكانية وجود حرب صليبية ضد الإسلام « د. ليلى تكلا » في مقالها : صدام الأديان هدف لم يتحقق ، المنشور بالأهرام في ٦/٢٤ /٢٠٠٣م [ص : ١٣] .

إلى نهايتها واستعمار الأراضي الإسلامية ، أو إنهاء الوجود الإسلامي بوسط أوروبا على أقل الفروض .

وفي هذا يقول القس إكرام لمعي [1] : « إنه ليس من الموضوعية اليوم الحديث عن أصولية دينية تحرك السياسة الأمريكية ، فالمعروف أن السياسة الأمريكية تحركها أولا وأخيرا المصالح وأن هذه الحركات الدينية يمكن أن تكون عاملا مساعدا ، لكنها لا يمكن أن تكون المحرك الأساسي في اللعبة السياسية الأمريكية ، وإلا أين كانت الأصولية المسيحية عندما وقفت الولايات المتحدة ضد الصرب في البوسنة وألبانيا وأين كانت الأصولية المسيحية عندما وقفت الولايات المتحدة مع الكاثوليك في أيرلندا ضد البروتستانت ، لا شك أن المحرك الأساسي في كل هذا هو المصالح » أ.هـ

٢- إن ادعاء التوحد الديني للمسيحيين تحت راية الصليب لا يوجد اليوم إلا في مخيلة من يدعونَّه ، وهذه الدعوة لا تسلم لهم لأنهم يغفلون أمورا عديدة منها :

○ إن الصراعات الكبرى التي شهدها القرن الماضي كانت في أغلبها بين مسيحيين ومسيحيين ، فالحرب العالمية الأولى والثانية أطرافها من المسيحيين ، والحرب الباردة من ١٩٤٥ إلى ١٩٩١م كانت بين أمريكا ومعسكرها الغربي حيث هيمنة المسيحية الكاثوليكية والبروتستانتية في مواجهة الاتحاد السوفيتي حيث هيمنة المسيحية الأرثوذكسية ، واستمر الخلاف في القضايا الكبرى حتى بعد ١٩٩١م عام انهيار الاتحاد السوفيتي حيث الخلاف الكبير حول الموقف في البلقان وتداعيات تفكك يوغسلافيا والتي نجم عنها اقتتال بين الصرب الأرثوذكس والكاثوليك في سلوفينيا ثم في كرواتيا مما أسفر عن قيام دولتين بجوار دولة صربيا هما: سلوفينيا وكرواتيا ، ذلك فضلا عن الصراع بين الصرب والكروات والمسلمين والألبان على مستقبل البوسنة والهرسك حيث قاتل المسلمين والكروات معا ضد الصرب الأرثوذكس بعد تعرضهم لعمليات تطهير عرقي لم تتوقف حتى تم تدخل حلف

(١) راجع في ذلك كراسات استراتيجية [عدد : ١٢٢] الصادرة عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام تحت عنوان : « موقف اليمين المسيحي والكنائس الأمريكية من قضايا الشرق الأوسط » لأديب نجيب ص [١٤٠] .

الأطلنطي بقيادة أمريكا وهو ما تم مثله بعد ذلك في كوسوفا . وفي كل هذا كان الصراع لا يشهد توحدا بين مسيحي الشرق والغرب ضد الإسلام .

- إن ادعاء التوحد بين المسيحيين تحت راية صليبية واحدة يهمل التشتت المذهبي المسيحي الذي يمنع مثل هذا التوحد ، فالمسيحية منقسمة على ثلاثة مذاهب كبرى هي : الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية ، والخلاف بين هذه المذاهب خلاف عقدي وليس كالخلاف بين المذاهب الفقهية الإسلامية الأربعة ، فالكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية أشبه بالملل المستقلة والصراع بينها كثيرا ما يفوق صراع إحداها مع أتباع أي ديانة أخرى ، ولعل ما يحدث في ايرلندا الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت شاهد على صحة ذلك .
- إن ادعاء توحد المسيحيين تحت راية الصليب في أيامنا هذه يهمل حقيقة الخلاف الذي بدأ في التشكل بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بين أمريكا وبعض مراكز الثقل الأوروبي كفرنسا وألمانيا على خلفية التنافس الاقتصادي والصراع على الأسواق ، وهذا ما لاحظه صموئيل هنتنجتون واعتبر أن من فوائد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م أنها أعادت التوحد الذي كاد أن يفقد ، وفي هذا يقول هنتنجتون [1] في حواره المنشور في نشرة « وجهة نظر عالمية » : ولا يمكننا أن ننفي أن العمليات الإرهابية وابن لادن قد نشطت الهوية الحضارية وفي الوقت الذي يسعى فيه لتجميع المسلمين بإعلان الحرب ضد الغرب أعاد للغرب إحساسه بالهوية المشتركة بالدفاع عن نفسه (٠٠٠) إن القوى الغربية المتمثلة في U.S.A وأوروبا ينبغي لها أن تحقق أعظم درجة من التكامل السياسي والاقتصادي والعسكري كما ينبغي لها أن تنسق سياستها حتى لا تتمكن الدول والحضارات الأخرى أن تستغل خلافاتنا .

قبل الحادي عشر من سبتمبر كانت أوروبا وأمريكا تبتعدان عن بعضهما البعض في ما يتعلق بمجموعة كاملة من القضايا ، من الأغذية المحورة وراثيا إلى الدرع الصاروخي إلى القوة العسكرية الأوروبية ، لكن أحداث الحادي عشر من سبتمبر غير ت هذا كليا .. وبهذا المعنى فإن ابن لادن قد أعاد للغرب هويته المفقودة » ا.هـ .

---

(١) سبق الإشارة إليه .

٣- إن ادعاء التوحد المسيحي تحت راية صليبية يغفل حقيقة الدور الذي يلعبه الدين في توجيه الحياة السياسية الغربية سواء في أمريكا أو أوروبا ، فدور المسيحية هناك تم تحجيمه في إطار سيادة الفكرة العلمانية منذ قرون مضت حيث تم فصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية أو فصل الدين عن الدولة ، وهو ميراث مستمر منذ أن تم طرحه بقوة من فلاسفة غربيين [١] أمثال هوبز [ت : ١٦٧٩] وجون لوك [ت : ١٧٠٤] عبرت عنه الثورة الفرنسية ، والرؤساء الأوائل لأمريكا وفي ذلك الوقت يقول الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون [٢] : « هدف التعديل الأول للدستور هو إنشاء حائط فاصل بين الكنسية والدولة » ا.هـ .

وهو ما ترجمه الدستور الأمريكي في التعديل الأول له في ١٧٩٨/١٢/١ الذي ينص على : « لا يصدر الكونجرس أي قانون خاص بإقامة دين من الأديان أو يمنع حرية ممارسته »[٣] ا.هـ .

ولعل مثل هذا التراث هو ما جعل هارولد بلوم [٤] في كتابه الدين الأمريكي ١٩٩٢ يقول : « إن المسيحية الأمريكية تجربة براجماتية أمريكية ، وإن يسوع الأمريكي « أقرب لما هو أمريكي مما هو مسيحي » ا.هـ .

ولذلك فإن من يهمل هذه الحقيقة يغفل أساسا صلبا يتمسك به الغرب إلى يومنا هذا بل إن مفكريه مثل فوكوياما يجعلون من الشروط المطلوبة من المسلمين لدخول عصر الحداثة وللتعايش مع الغرب هو المصالحة مع مبدأ العلمانية كما تقدمه الحضارة الغربية .

---

(١) راجع تفصيل ذلك في الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده . د.حورية توفيق مجاهد دار الأنجلو المصرية ط٣ سنة ١٩٩٩ [ص : ١٣٢ ، ٣٥٩] وما بعدهما ، وراجع أيضا دراسة : دور الدين في السياسة الخارجية الأمريكية ، الأزمة العراقية نموذجا . للأستاذ عصام عبد الشافي المنشور بمجلة السياسة الدولية عدد ١٥٣ [ص : ١٣٦] .

(٢) تفكيك أمريكا [ص : ٩٣] .

(٣) راجع نصوص هذه التعديلات في « تفكيك أمريكا » .

(٤) تفكيك أمريكا [ص : ١٠٧] .

٤- إن القول بالإحياء الديني المسيحي قول صحيح لكن لا يصح المبالغة في أثره على التوجهات السياسية ، فإلى هذه اللحظة ما زال اليمين المسيحي الأصولي في مرحلة التشكيل والمد والجزر بين نجاحات وإخفاقات ، كما أن الأجندة الخاصة به مازالت تدور في فلك القضايا الاجتماعية لا السياسية ، وهو ما نراه في شأن اتجاهات اليمين المتطرف بأوربا في النمسا وفرنسا على سبيل المثال وأيضا نفس الأمر بالنسبة لليمين المسيحي الأصولي في أمريكا ، مع ملاحظة أن اليمين المسيحي سواء في أوروبا أو أمريكا لا يمثل سوى نسبة صغيرة من الجسم المسيحي بداخل هذه البلدان ، فعلى سبيل المثال فإن أتباع الكنائس التي يندرج فيها ما يسمى باليمين المسيحي الأصولي « الإيفا إنجيليين في أمريكا يمثلون ١٠٪ من إجمالي البروتستانت في أمريكا ومن المعلوم أن البروتستانت يمثلون ٦٠٪ من عدد سكان أمريكا البالغ ٢٦٧ مليونا وفقا لإحصائيات ١٩٩٧ [١] .

وإذا كان أنصار اليمين المسيحي يمثلون قوة تصويتية تفوق نسبتهم العددية من مجمل السكان في أمريكا فذلك لأنهم نشيطون انتخابيا .

لكن يجب ملاحظة أن اليمين المسيحي الأصولي فشل في دعم المرشح الجمهوري للفوز بالانتخابات الرئاسية طوال الفترة من ١٩٩٢ حتى ٢٠٠٠م حيث انتصر بيل كلينتون المرشح الديموقراطي مرتين متتاليتين ، ومع ذلك فقد نجح اليمين المسيحي الأصولي في دعم المرشحين الجمهوريين لتحقيق أغلبية في مجلس الكونجرس وهذا يدل على حالة المد والجزر التي أشرنا إليها من قبل في مسيرة اليمين المسيحي الأصولي .

وهذا الإخفاق والمد والجزر لليمين المسيحي الأصولي في أمريكا كانت له سمة خلال عقد التسعينات ، ولكن جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر لتتيح له فرصة ذهبية للظهور والتغلغل في إدارة بوش الابن وتوجيه سياساتها وفقا لأجندته .

٥- إنه إذا افترضنا جدلا وجود مثل هذه الحرب الدينية ضد أي أقطار إسلامية في أي مكان في العالم فإنه لا يصح القول بوجودها في بداية التسعينيات من القرن الماضي بالنسبة لباكستان وأفغانستان على وجه الخصوص . فالدعم الأمريكي لباكستان لعقود

(١) راجع في ذلك : تفكيك أمريكا [ص : ١٠٠] ، موقف اليمين المسيحي والكنائس الأمريكية من قضايا الشرق الأوسط [ص : ٣] .

طويلة مسألة لا تخفى على أحد ، ودعم أمريكا للجهاد الأفغاني ظل مستمرا حتى تحقيق النصر وانسحاب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان في ١٩٨٩م ، ومحاولة أمريكا لإيجاد صيغة تفاهم مع نظام طالبان تحقق المصالح الأمريكية في وسط آسيا [١] أمر لم يعد سرا ، فأين الحرب الصليبية فيما يخص باكستان وأفغانستان .

هذه هي الشواهد العكسية التي يستدل بها البعض على نفي وجود مثل هذه الحرب الصليبية ضد العالم الإسلامي في مطلع التسعينات من القرن الماضي .

○ ○ ○

(١) راجع استعراضا للمصالح الأمريكية في وسط آسيا في : مجلة السياسة الدولية عدد ١٥١ مقال سياسة خطوط الأنابيب والاستقرار في بحر قزوين [ص : ١٨٠] عبير ياسين ، وعدد ١٥٢ مقال الوجود العسكري والسياسة الامريكية تجاه آسيا الوسطى [ص : ٢٢٨] عبير ياسين .

« سياسات ذات بعد ديني .. لا حرب صليبية »

إذا كان ما سبق ذكره من شواهد تدل تارة على وجوب الحرب الصليبية ضد العالم الإسلامي أو تنفيها تارة أخرى ، فنحن نرى أنه لا يمكن الوصول للحقيقة بالاعتماد على بعض هذه الشواهد دون البعض الآخر ، فالصورة لا تكتمل إلا بوضع كل هذه الشواهد في الاعتبار فالأمة الإسلامية في مطلع التسعينات من القرن الماضي لم تكن بصدد إعلان حرب صليبية عليها ، لكن لا يمكن في نفس الوقت نفي الدوافع الدينية التي يمكن أن تكون قد أسهمت في تشكيل بعض السياسات الغربية تجاهها .

والذي يدفعنا إلى تبني هذا الرأي أمور عدة :

١- إنه في ظل هذه الشواهد المتعارضة في الدلالة على نفي أو وجود حرب صليبية في أوائل التسعينات ضد العالم الإسلامي لا يمكن قبول دعوى التوحد الغربي خلف راية صليبية ضد الأمة الإسلامية ، وإن التفسير الذي يجمع بين تلك الدلالات المتعارضة هو ابتناء السياسات الأمريكية والأوروبية على تقديم المصالح القومية على أي حسابات دينية ، فالحرب الباردة فرضت هذا المنطق وكذلك الطموح الأمريكي للهيمنة بعدها ينحاز لهذا المنطق بعيدا عن المثالية أو الأخلاق أو المبادئ [١] .

٢- إنه يجب التفريق في النظر لبعض هذه الشواهد بين فترتين الفاصل بينهما أحداث ١١سبتمبر ٢٠٠١م ويظهر ذلك من خلال تناول القضيتين الآتيتين :

أ- الموقف من الإسلام ورؤية أمريكا والغرب له : من الفترة الممتدة من ١٩٩١ إلى ١١سبتمبر ٢٠٠١م .

كان الحديث في دوائر الفكر ومؤسسات البحث وصنع القرار يدور حول تحديد الموقف من الإسلام ، وكان هناك رأيان متعارضان [٢] :

---

(١) راجع في ذلك مجلة الديموقراطية العدد [٤] الصادرة عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام ، مقال السياسة الأمريكية بين المثالية والواقعية ، د. هالة مصطفى [ص : ١٢] .

(٢) راجع في ذلك قراءة رضا هلال لعدد من الكتب التي تبادلت رؤى الأمريكيين للإسلام والمسلمين والمنشور بالأهرام في ٢٠٠٣/١/١٧م [ص : ١٢] .

أحدهما : يذهب إلى أن الإسلام هو العدو .

والآخر : يرى أنه يمكن التوافق بين الإسلام والغرب .

أما بالنسبة لخطاب الإسلام العدو هو خطاب صدامي يتبنى حتمية الصدام بين الإسلام والغرب بما يفرض على أمريكا أن تتبع أسلوب المواجهة ومحاربة الإسلاميين .

ويضم فريق الصدام مؤرخين وجامعيين وباحثين وصحفيين مثل : برنارد لويس ، وصموئيل هانتنجتون ، ودانييل بايبس ، وجوديث ميللر ، وستيفن أمرسون .

وعادة ما يسمى هذا الفريق باسم فريق « الاستشراق الجديد » ؛ لأنه لم يزل متأثرا بتراث الاستشراق الأوروبي في النظر إلى الإسلام كخطر تاريخي هدد أوروبا المسيحية ، وكموضوع للسيطرة الغربية .

في مواجهة فريق الصدام بين المفكرين والباحثين والصحفيين الأمريكيين ، يؤكد فريق التوافق رفض مقولة الصدام والمواجهة مع الإسلام ، من منطلق رفض « العداء الإسلامي للغرب » ورفض التناقض بين الإسلام والديموقراطية ، ويقوم هذا الخطاب على التمييز بين إسلاميين متشددين « أقلية » وإسلاميين معتدلين هم الأكثرية . وهذا الفريق يمثله جون اسبوزيتو ، وليون هايدار ، وجراهام فوللر . وأحيانا ما يسمى هذا الفريق بفريق « ما بعد الاستشراق » ؛ لأنه تجاوز تراث الاستشراق الأوروبي إلى الدراسة الإمبريقية والواقعية للإسلام كسلوك اجتماعي وسياسي وليس فقط كدين داخل دار الإسلام وخارجها » ا.هـ .

لكن بعد الحادي عشر من سبتمبر تغير الحال وارتفع صوت فريق الصدام وخفت صوت فريق التوافق وعبر عن ذلك جراهام فوللر [1] أحد أفراد فريق التوافق في مقال له بعنوان ساخر « برافو أسامة » جاء فيه : « برافو أسامة – يقصد أسامة بن لادن – فإن كان هدفك وراء هجماتك على مركز التجارة العالمي والبنتاجون هو تقويض العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب فقد نجحت في تحقيقه بجدارة ، إذ أن التوتر بين الجانبين لم يكن خلال العصور الحديثة أسوأ مما هو عليه الآن وإن كان هدفك هو إحداث مواجهة بين العالم الإسلامي والولايات المتحدة فقد نجحت » .

ويشير فوللر إلى صعود التيار المنادي بالصدام والمواجهة مع الإسلام والمسلمين بقوله : « .. في الولايات المتحدة الأمريكية تعزز موقف الجماعات المؤيدة لإسرائيل إلى جانب

(١) المصدر السابق الأهرام ص [١٢] .

الصهاينة المسيحيين والمحافظين الجدد ذوي الأطماع الإمبريالية ، فقد منحهم أسامة بن لادن سلاحا قويا ، وزادت الهجمات الفكرية السياسية ضد الإسلام والمسلمين ، بينما لم يعد أشخاص مثلي ممن يحاولون توضيح الموقف العربي والإسلامي للجمهور الأمريكي قادرين على الحصول على فرص كبيرة لعرض ذلك الموقف في وسائل الإعلام » ا.هـ .

وهكذا ازدهرت رؤية اليمين المسيحي الأصولي وهو ما يتناوله في النقطة التالية :

ب – تعزيز اليمين المسيحي الأصولي لموقعه

شهدت الفترة السابقة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م صعودا متذبذبا لليمين المسيحي الأصولي في ظل سيطرة الديموقراطيين على البيت الأبيض لمدة ٨ سنوات متصلة إلى أن حانت الفرصة مع دخول بوش الابن البيت الأبيض في ٢٠٠٠م ووجود عدد من المحافظين الجدد أنصار اليمين المسيحي الأصولي في مواقع هامة في إدارة جورج بوش الابن غير أن هذا الوجود لم يكن يعني سيطرتهم على اتجاهات الإدارة وفقا لرؤاهم اليمينية ، لكن بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر اختلف الوضع .

ولنستمع إلى المفكر الأمريكي : « والتررسل ميد [1] » في كتابه « التقاليد الجاكسونية » « The Jacksonian Tradition » : « وبدأ الأمر كأن الهجوم الإرهابي في الحادي عشر من سبتمبر ، كان على موعد مع هذه المجموعة ، فلم تكن هناك فرصة تاريخية كهذه ، يمكن أن تسمح لهذه المجموعة بالاندفاع في إحياء فكرها وبرنامج عملها السياسي القديم ، ووضعه موضع التنفيذ ، وعدم الخوف من مقاومة ومعارضة تيارات ومدارس سياسية أخرى في الولايات المتحدة ، بعضها يعارضهم وبعضها يرفض فكرهم رفضا تاما فالرأي العام بتأثير الصدمة أصبح معبأ في اتجاه سياسات استخدام القوة ، ونزعة الحرب انتعشت وتعاظمت في مشاعره .

وأخذت القيادات السياسية التنفيذية في مواقع السياسة الخارجية في الدولة ، توصف مرة بلوبي الحرب ، ومرات بحزب الحرب .

وظهر بشكل واضح أن السياسة التي راح أقطاب السياسة الخارجية في البيت الأبيض ووزارة الدفاع يرددونها منذ الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م ، ثم ضمنوها وثيقة

(١) مقال : الأمريكيون والحرب عرض كتاب التقاليد الجاكسونية للمفكر الأمريكي والتر ميد المنشور في جريدة الأهرام في ٢٠٠٢/١٢/٢٠م [ص : ٣٥] .

الاستراتيجية الجديدة للأمن القومي للولايات المتحدة التي أعلنت في العشرين من سبتمبر ٢٠٠٢م تكاد تكون هي نفسها التي تضمنتها الأفكار الجاكسونية التي ظهرت لأول مرة منذ ١٩٠ عاما ، ومنها على وجه التحديد :

الحروب الوقائية وعسكرة السياسة الخارجية ، أي أن الحرب هي روح السياسة الخارجية ، ومواجهة الشر ومبعوثي الشيطان ، وأن العالم سيبقى أسير الفوضى والعنف ، واغتيال الزعماء وتخريب الحكومات الأجنبية ، وعدم الاكتراث بالقانون الدولي والمؤسسات الدولية » ا.هـ .

وهكذا وجدت هذه المجموعة المتغلغلة في إدارة بوش الابن الفرصة في تطبيق رؤيتهم التي ضمنوها في دراسة لهم أعدوها في سنة ١٩٩٧م تحت عنوان « مشروع القرن الأمريكي الجديد » .

وهكذا أتت أحداث الحادي عشر من سبتمبر كي تتيح لليمين المسيحي الأصولي فرصة تعزيز وجوده وتنفيذ أطروحاته سواء فيما يتعلق بإسرائيل أو بالاستراتيجية الأمريكية .

وكي نقدر حجم وعمق هذا التغلغل يمكن أن نلقي نظرة على أبرز أقطاب هذا التيار في إدارة بوش الابن :

ففريق المحافظين الجدد يضم عددا كبيرا من المسئولين على كل مستويات صناعة واتخاذ القرار [١] .

- فجورج بوش الابن له ميول محافظة .
- ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي .

(١) راجع فيما يتعلق بنشأة أفكار اليمين المسيحي الأصولي وأنصاره في إدارة بوش ، المراجع الآتية : تفكيك أمريكا ، المسيح اليهودي : لرضا هلال ، موقف اليمين المسيحي والكنائس الأمريكية من قضايا الشرق الأوسط ، وسلسلة المقالات التي كتبها جهاد الخازن في زاويته اليومية بجريدة الحياة اللندنية والتي بدأها في ٢٠٠٣/٥/٢٤ م ، وراجع الجذور الدينية لدى بوش الابن في « عالم بوش السري .. الدين – الأعمال – الشبكات الخفية » في جريدة الحياة الصادرة في ٢٠ يوليو ٢٠٠٣م [ص : ١٦] .

- دونالد رامسفيلد وزير الدفاع .
- جون اشكرفوت وزير العدل .
- كوندااليزا رايس مستشارة الأمن القومي .
- بول وولفوفيتر نائب وزير الدفاع - وهو أخطرهم - .
- ريتشارد بيرل عضو مجلس سياسة الدفاع وهو أنشطهم وأكثرهم دعما لإسرائيل .
- ايليوت ابرامز مساعد خاص للرئيس ومدير شئون الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في مجلس الأمن القومي .

هذه بعض الأسماء في قائمة طويلة تبين إلى أي مدى تغلغل اليمين المسيحي في الإدارة الأمريكية الحالية .

وهكذا أوجدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر فرصة لظهور تحالف يحدثنا عنه جهاد الخازن قائلا [1]: « وأوجدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر تحالفا بين المحافظين الجدد ، وفيهم عدد كبير من اليهود ، والصقور التقليديين ، واليمين المسيحي وكبار مستشاري الرئيس ، مثل كارل روف . ولكن يجب التأكيد هنا أن المحافظين الجدد ليس كلهم يهودا ، وأن اليهود في الإدارة ليسوا كلهم محافظين جددا . ومثلا ، ريتشارد هاس ، مدير تخطيط السياسة في وزارة الخارجية ، ودانيال كريتزر ، السفير في تل أبيب ، معتدلان ويعملان لتسوية فلسطينية إسرائيلية عادلة .

غير أن المحافظين الجدد الكلاسيكيين عملوا من دون كلل لترويج مجموع سياسات تضمنتها وثائق وخطط وبرامج عملوا عليها في السنوات الأخيرة ، وأصبحت الآن سياسة إدارة جورج بوش وهناك مثلا :

- توجيه تخطيط الدفاع الذي كتبه : بول ، وولفوفيتز ، وليبي لويس ، لوزير الدفاع في حينه ديك تشيني سنة ١٩٩٢م . والوثيقة تشدد على هيمنة عسكرية أمريكية طاغية ، واستعمال القوة في شكل استباقي أو إجهاضي ، ما اعتبر تطرفا في تلك الأيام .

---

(١) زاوية عيون وآذان ، لجهاد الخازن ، في جريدة الحياة اللندنية ، بعنوان : صعود المحافظين الجدد في إدارة بوش [ص : ٢٤] .

○ الدراسة « انفصال كامل » التي أعدها سنة ١٩٩٦م لرئيس إسرائيل بنيامين نتنياهو فريق يهودي أمريكي ضم : ريتشارد بيرل ، ودوغلاس فايث ، والزوجين : ديفيد وميراف ورمزر . ودعت الدراسة إلى إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط ، وإسقاط صدام حسين ، وتحييد سوريا ، ومطاردة الفلسطينيين ، أو إشغال العرب والمسلمين بشيء أهم منهم . وهذا كله أصبح الآن من ضمن سياسة إدارة بوش .

○ مشروع القرن الأمريكي الجديد الذي أنشئ سنة ١٩٩٧م بتأييد : وولفوفيتز ، وتشيني ، ودونالد رامسفيلد ، وآخرين ، وكان هدفه الترويج لأفكار المحافظين الجدد ، وأظهرت استراتيجية الأمن القومي التي أعلنها جورج بوش في أيلول من السنة الماضية مدى تغلغل أفكار المحافظين الجدد في التفكير الاستراتيجي للإدارة » ا.هـ

ويقول أيضا سعيد محيو[1] : « ما سر هذه النخبة المتطرفة ، ولماذا تفعل ما تفعل ؟ الإجابة بسيطة : إنها مجموعة قومية أمريكية متطرفة ، تنظر بعين حمراء وبنيات سوداء إلى كل ما يجري حول الولايات المتحدة في العالم . أيدلوجيتها الوحيدة « أمريكا أولا وأخيرا » في مواجهة العالم .

في السابق كانت هذه النخبة « تحكم » عن بعد أو تشارك جزئيا في السلطة بين الفينة والأخرى . لكنها مع وصول جورج بوش الابن إلى البيت الأبيض العام ٢٠٠٠م ، امتلكت كل زمام الأمور ، وهذا تكرس عبر تطور شخصية الرئيس الأمريكي نفسه .

اللحظة الحاسمة في هذا التطور كانت ١١ أيلول ٢٠٠١م التي حسمت الأمور لدى الرئيس الذي لا يعرف سوى القليل عن العالم ، والذي هو أساسا أصولي مسيحي يتطابق إيمانه تماما مع جدول أعمال المحافظين الجدد في مجال السياسة الخارجية عندما شن بوش حملته الانتخابية حذر من عملية « بناء الأمم » ومن التدخلات العسكرية الإنسانية « حيث لا توجد للولايات المتحدة مصالح قومية . بيد أنه بعد ١١ أيلول ، تبنى بالكامل برنامج النخبة النيو - محافظة حول تغيير الأنظمة والحروب الاستباقية ، ورفع شعارات « الحقيقة والعدل ونشر طريقة الحياة الأمريكية في العالم » ا.هـ .

---

(١) ملحق جريدة الحياة في ٢٠٠٣/٦/٢٣م [ص : ٨] مقال سعد محيو : نخبة بونابرتية تحكم في البيت الأبيض ، وراجع أيضا مقال وضاح شرارة السياسة الجديدة التي تنسب إلى المحافظين الجدد ، مركب من تقاليد ورؤى راسخة « الحياة » ٢٠٠٣/٦/٢١م [ص : ٩] .

ولعل هذا التغلغل هو الذي يدفعنا مع أمور أخرى للقول بأنه لا يمكن نفي تأثير الأبعاد الدينية في توجيه بعض السياسات الأمريكية والغربية خاصة في بعض القضايا مثل قضية فلسطين على وجه الخصوص .

وبعد ..

لعلنا الآن بعد هذا الاستعراض ننتهي إلى نتيجة محددة وهي أن القاعدة عندما صاغت استراتيجيتها بإشعال مواجهة وحرب على أساس ديني لم يكن ذلك في مقابلة حرب صليبية معلنة تجري على قدم وساق ، بل كان الأمر بالنسبة لأفغانستان خاصة على النقيض من ذلك .

ولقد أسهمت استراتيجية القاعدة في ذلك الوقت في تعزيز التيارات الصليبية المعادية للإسلام في أمريكا والغرب ؛ مما جعل صوت دعاة الحرب الشاملة للإسلام أكثر حضورا وحظوظا .

وإذا كنا نرى أن الحرب الصليبية هذه لم تكن قائمة حقيقة فقد يقول قائل : وما المانع من إشعال حرب ضد أمريكا والغرب على أساس ديني لاستنهاض همم الأمة ولإيقاف هذه المخططات في بدايتها ؟

فنقول : نختلف مع هذا المنطق لا لأن الأمة غير مستعدة لهذا الخيار فحسب ؛ ولكن أيضا لأننا نرى أن استنهاض الأمة من رقادها ومساعدتها على الإقلاع الحضاري لمواصلة عطائها من جديد يتطلب منا أن لا نقع في فخ صدام الحضارات ، وهو ما يستوجب سياسة التواصل الحضاري مع الحفاظ على الهوية الإسلامية والدفاع والجهاد ضد أي اعتداء على الثوابت الشرعية والمصالح العليا للدين والوطن والأمة .

ونرى أن الإسلام أتاح للمسلمين التواصل مع كل أحد والتفاعل مع كل الحضارات في إطار من التعاون على الخير وإحقاق العدل ، وهذا حديث سنزيده بيانا في أكثر من موقع في هذا الكتاب .

استخلاص عام :

وهكذا يمكن القول : إن الاستراتيجية الأمريكية تجاه أفغانستان – خاصة في مطلع تسعينات القرن الماضي – لم تكن لتبرر ابتناء القاعدة لاستراتيجيتها على النحو الذي اعتمدته .

وأن الأمة الإسلامية في ذلك التوقيت لم تكن بصدد إعلان حرب صليبية عليها ، وأن القاعدة قد أسهمت باستراتيجيتها تلك في تعزيز وتسريع السياسات الأمريكية والغربية السلبية تجاه الأمة الإسلامية ، وهو ما أقحم الأمة في صراع لا طاقة لها به ولا رغبة لها فيه .

وبعدما أوضحنا فيما سبق أوجه الخلل في أهم الأسس الواقعية التي نحسب أن القاعدة قد أسست استراتيجيتها عليها يمكننا الآن تقييم جوانب تلك الإستراتيجية بشيء من التفصيل .

رابعا : استراتيجية القاعدة .. « تقييم »

وبعد هذا الاستعراض لأهداف هذه الاستراتيجية وقسماتها وأهم أسسها ، يمكننا الآن وضع هذه الاستراتيجية موضع التقييم ؛ لسبر أغوارها ، وتحديد أبعادها ، ومعرفة مخاطرها ومثالبها .

وبالنظر لهذه الاستراتيجية ، والأهداف التي صيغت من أجلها يمكننا تقييمها عبر النقاط الآتية :

١- استراتيجية القاعدة .. « خلل في قراءة الواقع »

٢- استراتيجية القاعدة .. « أهداف مستحيلة أو ضبابية »

٣- استراتيجية القاعدة .. « ومن تجبيه الأعداء »

٤- استراتيجية القاعدة .. « ومخاصمة ترتيب الأولويات »

٥- استراتيجية القاعدة .. « استراتيجية الجمود »

ولنلق نظرة على كل بند من البنود السابقة .

١- استراتيجية القاعدة .. « خلل في قراءة الواقع »

تأسست استراتيجية القاعدة على خلل بَيِّن في قراءة الواقع من جوانبه المختلفة ، مما حرمها من اكتشاف الفرص المتاحة أمامها ، وأوقعها في اختيارات مبنية على الأماني والآمال أكثر من ابتنائها على الواقع والحقائق ؛ ولعل السبب في ذلك يتمثل في جملة الافتراضات الخاطئة التي حكمت تفكير القائمين آنذاك .

وتوضيحا لما سبق نقول : إن استراتيجية التحدي والمواجهة لأمريكا واليهود والصليبيين وغيرهم لا يمكن تصورها إلا مع افتراض وجود خلل في قراءة الواقع بكل أبعاده ، سواء

المتعلقة بالذات أو الغير في ظل غلبة الإهمال والاستخفاف بمعطيات السياسة الدولية ، وكذلك فإن الترويج للحرب على أساس ديني بين أمة الإسلام واليهود والصليبيين ، أو على أساس فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر على حد تعبير الشيخ أسامة بن لادن ، أمر لا يمكن أن يصدر إلا مع وجود خلل في قراءة واقع الأمة وقدراتها في اللحظة الراهنة .

○ **خلل في قراءة قدرات الأمة والذات :**

فأين قدرات الأمة الإسلامية اليوم التي تستطيع أن تواجه تحالفا بين اليهود والصليبيين والأمريكان يدفع إلى تكوينه تنظيم القاعدة دفعا ؟ وأين التكافؤ بينهما سواء على مستوى القدرات العسكرية أو التكنولوجية أو الاقتصادية أو على مستوى وحدة القرار السياسي ؟ كي نستطيع القول بوجود فرصة انتصار .

وإذا كانت الأمة الإسلامية اليوم غير مؤهلة أو مستعدة أو راغبة في الدخول في غمار مواجهة على أساس ديني ، فهل تنظيم القاعدة أو الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين والأمريكان لديهما القدرة على ذلك ؟! إن ادعاء توفر فرصة الانتصار في ظل هذه المعطيات أشبه بمن أراد الانتصار بالسيف على خصم قد تسلح بالبندقية بعد أن نجح في اكتشاف البارود .

إن إدخال الأمة في مواجهة على أساس ديني في ظل تخلفها ووهنها وتشرذمها أمر يفتقر إلى أدنى درجات الحكمة والواقعية ، فمن الظلم للأمة وأبنائها إدخالها معركة تتسلح فيها بالكلاشينكوف في مواجهة خصم يدير معركته بالأقمار الصناعية والأسلحة النووية والصواريخ العابرة للقارات .

ولذلك كان من الطبيعي ألا تجد استراتيجية القاعدة رواجا لها بين حكومات الدول إسلامية ، أو دعما من تيارات وحركات إسلامية ، وبدلا من ذلك كانت ملاحقة أعداء القاعدة وتسليمهم هي اللغة السائدة .

وإذا كان هناك تعاطف من عموم المسلمين مع تلك الاستراتيجية قدر تنظيم القاعدة حدوثها ، فهذا أمر لا ننكر حدوثه ولا ننفي وقوعه ، ولكن لابد من تقييم جدواة في إمكانية حسم هذه المعركة .

فصحيح يمكن للقاعدة أن تكسب بعض الأنصار من بين هؤلاء المتعاطفين ؛ من جراء الإحساس بالظلم الذي ينزل بالمسلمين على أيد يهودية أو أمريكية هنا أو هناك ، وصحيح يمكن للقاعدة توظيف هؤلاء المتعاطفين لأداء أدوار متنوعة ، بدء من تقديم المساعدات المادية وانتهاء بتقديم الأرواح ؛ من جراء الإحساس بعدم وجود بديل آخر أو حل لتلك الأزمة التي تمر بها الأمة الإسلامية اليوم .

هذا كله صحيح ، لكن الذي ينبغي التنبيه إليه ، والتفطن له ، أن هذا التعاطف في أغلبه من جنس تعاطف أهل العراق مع الإمام الحسين ، حين قال الفرزدق للحسين عندما سأله عن أحوالهم ، « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » ، والمقصود أن هذا التعاطف لا يقوى على مواجهة حقائق الواقع أو فوارق القوة ، وسرعان ما يتحول إلى تعاطف مكتوم ثم إلى لوم وإحباط ، عندما يجد أصحابه سُحُبْ الفشل تخيم على تلك الاستراتيجية وأن مشروع القاعدة يتجه إلى الانكسار بدلا من الانتصار .

إن الخلل في قراءة قدرات الذات وقدرات الخصوم والخلل في معرفة قدرات الأمة واستعداداتها يجعل استراتيجية القاعدة أشبه بالبذرة التي يراد استنباتها في الهواء وقبل الأوان .

☜ **والسؤال الذي يفرض نفسه : لماذا تحدث مثل هذه القراءة الخاطئة للواقع رغم وضوح الحقائق ؟**

ولن تكون الإجابة في اتجاه إلقاء اللوم على قصور المتابعة لمجريات الأحداث السياسية أو افتراض عدم القدرة على تحليل تلك المتغيرات أو استنباط لسياسات واستراتيجيات الخصوم ، لكن ستكون الإجابة في اتجاه آخر .

أحسب أن أهم العوامل التي تقف وراء هذه القراءة الخاطئة للواقع يكمن في التعامل مع معطيات الواقع والنظر إلى متغيراته عبر مجموعة خاطئة من الافتراضات ، أو المقولات التي تحكم تفكير العديد من العاملين ليس في القاعدة فحسب ، بل في مضمار العمل الإسلامي بأسره .

☜ **استراتيجية القاعدة ومجموعة الافتراضات الخاطئة** : وهذه الافتراضات قد يكون من بينها ما هو صحيح في حالة معينة ، لكن افتراض صحتها على الدوام يوقع في خلل كبير في فهم مجريات الأحداث ومن ثم اختيار الموقف المناسب تجاهها .

ومن أمثلة المقولات الافتراضية التي يتم التعامل معها كثوابت تحكم رؤيتهم للواقع ، وتفسيرهم لها على أساسها ما يلي :

- **المقولة الأولى** : إن الخطة الدولية لاستئصال الإسلام والحركات الإسلامية تسير على قدم وساق بغض النظر عما تقوم به القاعدة أو غيرها تجاه أمريكا وحلفائها ، وما دام الأمر كذلك فلن نخسر شيئا إضافيا بمهاجمتهم في عقر ديارهم !

والحقيقة هي أن مثل هذه الخطة الدولية المفترضة للقضاء على الإسلاميين في العالم لم تكن موجودة قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م بل كان هناك من الشواهد ما يبين عدم وجود إجماع دولي على خطة من هذا القبيل ، وهو ما أوضحناه بجلاء عند مناقشتنا للأسس التي ابتنت القاعدة استراتيجيتها عليها .

- **المقولة الثانية** : إن المصالح الأمريكية لا يمكن أن تلتقي مع المصالح الإسلامية ، فالعداء مستحكم والصدام واقع لا محالة !

وهذه المقولة وإن صحت في بعض الأزمنة أو بعض الأمكنة ، فالتاريخ والواقع يشهدان بعدم صحتها في حالات أخرى ، ولعل تجربة الدعم الأمريكي من خلال السعودية وباكستان والإمارات للمجاهدين الأفغان ضد الجيش الروسي في أفغانستان طوال عقد الثمانينات من القرن الماضي ، ما زالت ماثلة في عقول بعض أقطاب القاعدة إلى اليوم ولعل في الفرصة التي سنحت لنظام طالبان للالتقاء المصلحي مع العرض الأمريكي مثالا آخر – سوف نتعرض له بعد قليل – لخطأ مثل هذا الافتراض وتعميم القول به ، فما زالت المصالح هي الدين الرسمي لأمريكا وعلى أساسها تتحدد مواقفها وتتقرر علاقاتها .

- **المقولة الثالثة** : إن الصلح أو التفاوض أو التحالف مع أمريكا قرين للخيانة وباب للعمالة ، ولا خيار إلا الصِّدام !

وهذه المقولة تتجاهل أن الإسلام أتاح لأتباعه سلوك أي من هذه الاستراتيجيات دون حرج ، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عقد صلحا مع مشركي قريش ، وتحالف مع اليهود على الدفاع عن المدينة ولم يكن في أي من ذلك موصوما بالعيب ، وهذه مسألة سنزيدها بيانا بعد قليل .

○ **المقولة الرابعة** : إن أمريكا لن تتحمل في صراعها مع القاعدة حدوث خسائر بشرية في جنودها ، وكما كانت الخسائر البشرية في صفوف الأمريكان سببا في انسحابها من فيتنام في السبعينات من القرن الماضي ، ومن الصومال في تسعينات ذات القرن ، فكذلك سوف يتم الانسحاب من الخليج والسعودية لهذا السبب !

وهذه المقولة قد تكون صادقة تاريخيا في الحالات المذكورة ، لكن الخلل في القياس عليها مع إهمال الفوارق بين الحالة الصومالية والفيتنامية والحالة الخليجية ، ففي الحالة الفيتنامية كانت هناك قوى عظمى تستند إليها المقاومة الفيتنامية بصورة تحقق استنزافا متزايدا لأمريكا مع وجود خيارات أخرى - كالتواجد في الفلبين - أمام أمريكا لمعادلة النفوذ السوفيتي في منطقة جنوب شرق آسيا ، وفي الحالة الصومالية لم يكن هناك أي ثروات أو تنافس على مناطق نفوذ يغري أمريكا على البقاء والاستمرار .

أما في الحالة الخليجية فالوضع مختلف ، فليس أدل على هذا الاختلاف من إرسال أمريكا أكثر من ٥٠٠ ألف من قواتها إلى منطقة الخليج سنة ١٩٩٠م لإرغام العراق على الانسحاب من الكويت وفي صحبتهم عشرة آلاف نعش لإعادة ضحاياها من الجنود بداخلها إلى أمريكا ، وهو ما يكشف مدى الاستعداد الأمريكي لتحمل خسارة بشرية عالية في سبيل الحفاظ على مصالحها الاستراتيجية في بترول الخليج ، ولعل الأحداث بعد ذلك جاءت لتؤكد مثل هذا التوجه وذلك عندما أرسلت أمريكا زهاء ٤٠٠ ألف من جنودها كي تقوم بإسقاط نظام صدام حسين في مارس ٢٠٠٣م لإحكام السيطرة على البترول العراقي وتحقيق الوجود الدائم في تلك المنطقة الحيوية .

○ **المقولة الخامسة** : من جملة الافتراضات الخاطئة التي تبتنى على مقولة صحيحة قول البعض : لا يهمنا أن يواجهنا العالم بأسره ، ولا يهم فارق القوة ، بيننا وبين أمريكا ؛ لأننا لا نقاتلهم بعدد ولا عدة ولكن ننتصر عليهم بطاعتنا لله ، وإذا كان اللّه معنا فمن ينتصر علينا ؟

ولعل هذا ما أجاب به الملا عمر عندما بدا القصف الأمريكي على أفغانستان في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر عندما سأله أحد الصحفيين في لقاء نادر معه : هل أنت واثق من النصر ؟ فأجاب : « نعم ؛ لأن اللّه معنا » .

والحقيقة أنه لا خلاف في أن طاعة اللَّه سبب أساسي من أسباب النصر ، لكن من جملة طاعة اللَّه الأخذ بأسباب اللَّه التي جعلها موصلة للنصر ، ومن جملة طاعة اللَّه الالتزام بسنن اللَّه التي جعل الأقدار تسير على هداها .

أما من أهمل الأسباب الشرعية وخاصم السنن الإلهية محتجا بالمعية الربانية فقد أتى بأحد شروط الفلاح ، وترك شروطا لابد منها لتحقيق النجاح ، ولا ينفعه توكله مع عجزه ، فالنصر مرتهن بالتوكل والأخذ بالأسباب وفق ما أشار إليه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في قوله : « احرص على ما ينفعك واستعن باللَّه ولا تعجز »[1].

ورحم اللَّه ابن القيم حين قال [2] : « فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض ، فإن كان مشوبا بنوع من التوكل فهو توكل عجز ، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزا ، ولا يجعل عجزه توكلا بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها (...) فإن التوكل محله الأسباب ، وكماله بالتوكل على اللَّه فيها (...) وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره وليس اللَّه حسب صاحبه ، فإن اللَّه يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه ، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها لا إضاعتها » ا.هـ .

وكثيرا ما يقع بعض العاملين في مضمار الجهاد - خاصة - في إهمال الأخذ بالأسباب بل قد يستخف بعضهم بذلك الأمر ويرونه من ضعف التوكل واليقين ودلالة على الجبن والخور ، ويترتب على ذلك المنطق استهانة قائلة بحقائق القوة والقدرة ، واستخفافا بالواقع ومعطياته ؛ مما يقود حتما إلى القراءة الخاطئة .

وفي ظل هذه الافتراضات الخاطئة ، لا يمكن قراءة الواقع قراءة صحيحة مما يؤدي إلى عدم اكتشاف الفرص السانحة التي قد لا تتكرر ، وهو ما حدث في مطلع سنة ١٩٩٧م حينما لاحت أمام حركة طالبان فرصة لو تم اقتناصها لتغيرت مجريات الأحداث إلى اتجاه مغاير تماما للذي حدث وانتهى بسقوط نظام طالبان ، وهذه الفرصة السانحة أو بالأحرى الضائعة تحتاج وقفة خاصة معها :

---

(١) رواه مسلم [٢٦٦٤ / ٣٤] عن أبي هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ، المطبعة المصرية ومكتبتها [٢ /٣٠٠] .

☜ **استراتيجية القاعدة .. وإهدار الفرص الذهبية :** مع صعود حركة طالبان إلى سدة الحكم في سنة ١٩٩٦م وسيطرتها - عبر الدعم الباكستاني - على أكثر من ٩٠٪ من أراضي أفغانستان ، بدأت تلوح في الأفق فرصة ذهبية لدعم هذا النظام الوليد ، متمثلة فيما عرضته أمريكا على سلطات طالبان سواء عن طريق باكستان أو عبر بعض الوسطاء ، وكان هذا العرض يتضمن دعما عسكريا واقتصاديا لحركة طالبان في مقابل التوافق الاستراتيجي مع المصالح الأمريكية الجيواستراتيجية والاقتصادية في منطقة وسط آسيا .

ومن هنا جاء العرض الأمريكي بمنح أفغانستان ثلاثة مليارات من الدولارات كمنحة لا ترد ، وثلاثمائة مليون دولار سنويا نظير إيجار لمرور خط الأنابيب الذي ينقل الغاز الطبيعي من منطقة بحر قزوين عبر أفغانستان ، ومنها إلى باكستان فالمحيط الهندي ليجد سبيله إلى أمريكا وأوروبا واليابان .

وكان هذا التوافق الاستراتيجي يمنح الطرفين مزايا عديدة ، فعلى الجانب الأفغاني :

١- الحصول على عائد اقتصادي من إيجار خط أنابيب الغاز الطبيعي مما يسهم بلا شك في بناء دولة قوية .

٢- الحصول على دعم عسكري يمكن من خلاله حسم الصراع مع التحالف الشمالي المعارض الذي ظل يسيطر على حوالي ١٠٪ من أراضي أفغانستان .

٣- قيام تحالف استراتيجي مع باكستان يؤمن مستقبل الحركة ضد أي محاولات تستهدفها من جيرانها .

أما على الجانب الأمريكي فكان هذا التوافق يحقق له جملة من المزايا هي :

١- وجود قوة إسلامية سنية متمركزة في وسط آسيا معادلة للقوة الإسلامية الشيعية الإيرانية ، مما يسهم في إحكام الحصار على إيران ويمنعها من التفكير في التمدد شرقا .

٢- إيجاد عمق دفاعي لباكستان كحليف هام لأمريكا بالمنطقة .

٣- إيجاد ركيزة موالية في وسط آسيا بجوار الصين من جهة الغرب ، وروسيا الاتحادية من جهة الجنوب .

٤- وضع حد لوجود تنظيم القاعدة بأفغانستان الذي بات يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ويستهدف وجودها بالخليج .

لقد كانت أمريكا مستعدة للمضي في هذا الاتفاق قدما دون اشتراط أي شروط تتعلق بقضية تطبيق الشريعة في أفغانستان . فماذا حدث ؟

ولقد كان منتظرا من حركة طالبان وتنظيم القاعدة التعامل مع هذا العرض بصورة إيجابية تحفظ المصالح الإسلامية وتنضبط بالضوابط الشرعية ، ولكن للأسف لم يتم التعامل معه بهذا المنطق .

وبدلا من تقديم مصلحة الدولة الإسلامية الأفغانية الوليدة على أي شيء آخر ، إذ بحركة طالبان ترفض هذا العرض بدعوى عدم قبولها لطرد أعضاء القاعدة من أفغانستان ؛ لما يحمله ذلك من معاني نكران الجميل والإخلال بحق المسلم على أخيه بألا يسلمه أو يخذله .

ومع اعترافنا بفروسية هذا الموقف من حركة طالبان ورعايتها لهذه المعاني شرعا ، فإننا نرى أنه كان بوسعها أن تجد حلا يحفظ لرجال القاعدة حقهم وسلامتهم ويحقق في نفس الوقت مصلحة الدولة وبقاءها وازدهارها .

لقد كان بوسع أقطاب تنظيم القاعدة أن يقدموا مصلحة الدولة على مصلحة التنظيم بأن يقوموا بنقل نشاطهم خارج الحدود الأفغانية حتى لو استمروا بنفس استراتيجيتهم أو ينحازوا إلى منطق بناء الدولة ويقوموا بحل التنظيم ويصيروا جندا وذخرا لإمارة أفغانستان الإسلامية ، ولو فعلوا أي من ذلك لكان أجدى وأنفع وأهدى سبيلا .

لكن ما حدث كان غير ذلك ، تشبثت القاعدة بأفغانستان كمركز انطلاق ودرع تحتمي به ، وتشبثت طالبان بالعلاقة مع القاعدة رغم أن النتائج المتوقعة لذلك الخيار كانت تصب في اتجاه تدمير الصديقين : القاعدة وطالبان .

وبدلا من أن تتمسك سلطات طالبان بالحد الأدنى من الحكمة وتمنع القاعدة من التحرك عبر أراضيها ، إذ بالقاعدة تعلن عن قيام الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين والأمريكان من فوق الأراضي الأفغانية ، وتبدأ في وضع هذا الإعلان موضع التنفيذ ، مما يقضي على هذه الفرصة السانحة ، ولتحل محلها مرحلة الاستهداف الصريح لطالبان والقاعدة في آن

واحد ، **وهكذا ضاعت فرصة سانحة ، ولاحت محنة قاسية كنتيجة منطقية لاستراتيجية أخطأت قراءة الواقع قراءة صحيحة .**

٢- استراتيجية القاعدة .. أهداف مستحيلة وضبابية

الاستراتيجية الفعالة عند خبراء الاستراتيجية هي تلك التي تبنى على أهداف ممكنة التنفيذ ، محددة بوضوح بعيدة عن التعميم والغموض .

وإذا طبقنا ذلك على الأهداف التي صيغت من أجلها استراتيجية القاعدة لوجدناها على العكس من ذلك ، فهي أهداف يقترب بعضها من دائرة المستحيل ، ويتسم البعض الآخر منها بغموض وضبابية .

فهدف إخراج القوات الأمريكية من الخليج والسعودية على وجه الخصوص ، يمكن إدراجه في عداد الأهداف غير ممكنة التنفيذ في ظل موازين القوى بين القاعدة وأمريكا ، وفي ظل الأهمية الاستراتيجية القصوى لمثل هذا التواجد بالنسبة للمصالح الأمريكية في العالم ، فالوجود الأمريكي في الخليج ليس من قبيل الترف الأمريكي ، إنما يعبر عن اختيار أمريكي حاسم باعتبار منطقة الخليج أحد أهم دوائر المصلحة القومية الأمريكية العليا ، ولا أدل على ذلك من قول وزير الخارجية الأمريكي الأسبق جيمس بيكر في إدارة جورج بوش الأب عندما سئل عن سر إرسال أكثر من ٥٠٠ ألف جندي أمريكي إلى صحراء الخليج الحارقة إبان احتلال العراق للكويت في أغسطس ١٩٩٠م فقال : نحن هناك من أجل ثلاثة حروف فقط هي : « Oil » ، وكان هذا الرد كافيا لنيل مساندة الكونجرس لخطة عاصفة الصحراء لتحرير الكويت .

ولقد عبر صموئيل هنتجنتون صاحب كتاب صدام الحضارات عن المبدأ الذي تتبعه أمريكا في صيانة أمنها القومي وذلك حينما سئل [١] بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر : اقترحت قاعدة الامتناع وأن على الغرب الامتناع عن التدخل في الصراعات الداخلية للحضارات الأخرى لكيلا تحدث صدامات ؟

فأجاب هنتجنتون : « لقد قيدت قاعدة الامتناع بالقول أنه يمكن انتهاكها إذا تعرضت مصالح حيوية قومية للخطر ففي حرب الخليج تعرضت مصالح حيوية قومية للخطر ؛

(١) في حوار مع هنتجنتون قام به ناشان جاردلز لفش « وجهة نظر عالمية » ونشر في جريدة الشرق الأوسط السعودية عدد ٨٣٦٥ في ٢٠٠١/١٠/٢٣م [ص : ٧] .

لأننا لا يمكن أن نسمح للعراق بالسيطرة بمفرده على الجزء الأكبر من احتياطي النفط العالمي ، ومبادئنا كانت معرضة للخطر أيضا فلم يكن من الممكن التسامح مع دولة تغزو وتضم دولة أخرى منتهكة بذلك كل القوانين الدولية ، ولذا كان مشروعا » .

ولعل سير الأحداث منذ ١٩٩٠م حتى اليوم يؤكد أن الوجود الأمريكي في المنطقة إلى تزايد لا إلى انكماش أو انحسار ، وأن هذا الوجود يعيد ترتيب أوضاعه بما يسمح له بإقامة دائمة متذرعا ببروز تهديدات إضافية عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م .

وإذا كان الهدف المحوري الذي تحركت القاعدة من أجله - وهو إخراج أمريكا من الخليج - يتسم بعدم إمكانية التنفيذ فإن الأهداف الأخرى التي واكبت إعلان الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين والأمريكان كانت سمتها الغموض والضبابية وعدم التحديد حتى صار الاعتقاد السائد أن الهدف من العمليات التي تخوضها هذه الجبهة ينحصر في مجرد إيلام الخصم ، وإلحاق أكبر قدر من الخسائر به .

ولنا أن نسأل : ما هو الهدف الآن من تلك العمليات هل هو إجبار أمريكا على الانسحاب من العالم بأسره والعودة للانكفاء الذاتي على نفسها ؟ أم هو دفع أمريكا لتبني مطالب القاعدة والعمل على تحقيقها في كافة القضايا المتعلقة بالعالم الإسلامي من كشمير شرقا إلى فلسطين غربا ؟

هل الهدف هو حمل أمريكا وأوروبا على عدم التدخل في شئون الدول الإسلامية أو عدم الانحياز للنظم الحاكمة بها ضد الحركات الإسلامية المعارضة لتلك النظم ؟

هل الهدف الدخول في مواجهة مع اليهود والصليبيين على أساس ديني تكون الجولة فيها لأهل الإسلام ؟

وإذا كان الهدف أيا من هذه الأهداف أو كلها ، فهل يدخل أي منها في عداد الممكن ؟

وقد يقول قائل : الهدف هو : تحرير أفغانستان من الاحتلال الأمريكي واستعادة الحكم الإسلامي بها .

فنقول : عفوا ، إن استراتيجية القاعدة أعلن عنها قبل سقوط نظام حركة طالبان واحتلال أفغانستان ، وما هذا الاحتلال إلا ثمرة من الثمار النكدة لهذه الاستراتيجية .

وقد يقول آخر : إن الهدف هو دفع أمريكا للتورط العسكري في أكثر من بؤرة في العالم الإسلامي ، مما يتيح الفرصة لاستنزافها بشريا واقتصاديا مما يؤدي إلى انهيارها مثلما انهار الاتحاد السوفيتي بعد تورطه في أفغانستان .

ونقول : إن هذا الهدف - على فرض وجوده - يعني إن القاعدة سعت قاصدة لاستدراج أمريكا إلى التدخل في أفغانستان حتى لو أدى ذلك إلى احتلالها وتغييب النظام الإسلامي بها **وهذا قول** أحسب أن أقطاب القاعدة لا يرتضونه لأنفسهم ولا نرضاه لهم .

والأقرب للحقيقة أن هذا لم يكن هدفا للقاعدة ، لأن القاعدة كانت تعتقد أن أقصى رد فعل أمريكي ضد هجماتها - حتى في الحادي عشر من سبتمبر - لن يتعدى إطلاق بعض الصواريخ على بعض المواقع والمعسكرات في أفغانستان على غرار ما تم عام ١٩٩٨م عقب الهجوم على سفارتي أمريكا في كينيا وتنزانيا ولقد كان الأمر لا يحتاج إلى مثل هذا الاستدراج لأمريكا إلى أفغانستان أو غيرها لأن الوجود الأمريكي القابل للاستنزاف البشري والاقتصادي موجود في أماكن عديدة بطول العالم وعرضه .

ولعل المناقشة السابقة لهذه التساؤلات الباحثة عن تحديد أهداف تنظيم القاعدة تكشف عن مدى الغموض الذي يلفها وعدم قابليتها للتنفيذ الذي يكتنفها .

وقد يطرأ سؤال على بعض الأذهان : إذا كانت القاعدة حددت أهدافا تندرج في عداد المستحيل ويشوبها الغموض وعدم الوضوح ، فما هو الهدف الذي كان ينبغي على القاعدة تبنيه ؟

وإذا كنا في مقام لا يسمح لنا بالتفكير نيابة عن أحد ، لكن بمكن القول أنه :

كان بوسع القاعدة أن تخطط لنفسها أهدافا أكثر واقعية وبما يحقق بعض المراد ويدفع أكثر المضار انطلاقا من أن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، وأن الميسور لا يسقط بالمعسور .

كان بوسع القاعدة أن تتحرك في دعم بعض حركات التحرر الإسلامية سواء في الفلبين أو كشمير أو الشيشان بعيدا عن الانطلاق من أفغانستان .

كان بوسع القاعدة أن تفعل هذا أو ذاك بعيدا عن الزج بدولة إسلامية وليدة في صراع مع أمريكا في توقيت انفردت فيه بموقع القطب الأوحد على المستوى الكوني .

كان بوسع القاعدة اختيار ما تراه من أهداف دون أن يكون ثمن هذا غياب دولة إسلامية وليدة أو إقحام الأمة الإسلامية في صراع غير مستعدة له أو راغبة فيه .

كان بوسع القاعدة اختيار أهداف تحيد بعض أعداء الأمة لا أن تجعلها في مواجهة العالم بأسره .

كان بوسع القاعدة أن تفعل أي من ذلك لكن للأسف لم تفعل شيئا من هذا واختارت أهدافا كان من شأنها تجبيه أغلب العالم ضدها وضد أفغانستان.

فجاء الخطأ في تحديد الأهداف ليؤدي إلى غياب دولة إسلامية قائمة ، وضياع الحلم بوجود دولة على أساس إسلامي وهذا أسوأ ما في الأمر .

٣- استراتيجية القاعدة « وفن تجبيه الأعداء »

مارس تنظيم القاعدة فنا غير مرغوب فيه أو مقدورا على تحمل نتائجه ، وهذا الفن هو : فن تجبيه الأعداء .

ولا ينفي من صحة هذا القول أن القاعدة قد أعلنت أن خصمها الأساسي يتمثل في أمريكا والصليبيين واليهود ؛ لأن هؤلاء - أعني اليهود والصليبيين وأمريكا - يمثلون نصف العالم .

ويضاف على هذا أن القاعدة قد أدخلت نفسها في صراعات مع العديد من الدول على خلفية أمرين هما :

- الدعم المستمر للعديد من الحركات الإسلامية ضد الأنظمة القائمة ببلدانها سواء في الشيشان وداغستان أو كشمير أو الفلبين أو غيرها .
- القيام بعمليات على أرضي بعض الدول موجهة ضد أمريكا مما يؤدي إلى إخلال بهيبة هذه الدول وأمنها وربما يؤدي لوقوع ضحايا من جنسيات تابعة لدول مختلفة ، مما يدخل كل هذه الدول في دائرة الصراع .

وإذا كنا نقف بقوة مع دعم أي حركات إسلامية تسعى للتحرر من مستعمر لكن عندما يكون ثمن ذلك عدم انتصار هذه الحركات وتعريض سلامة دولة مسلمة للخطر يكون الأمر هنا محل نظر .

وكي نستشعر مدى التوحد بين دول العالم الذي صنعته القاعدة ضدها ، نشير إلى قائمة الدول التي أدخلتها القاعدة في الصراع ضدها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر :

- الولايات المتحدة الأمريكية قوى عظمى نووية .
- الصليبيون : وسيتم إدخال - تحت هذا المسمى - كل العالم المسيحي بأوروبا والأمريكتين وآسيا وأفريقيا .
- اليهود .
- روسيا الاتحادية : على خلفية دعم ثوار الشيشان وداغستان وهي قوة نووية عظمى .
- الهند : على خلفية الدعم للثوار المسلمين الكشميريين ، وهي قوة نووية آسيوية كبرى
- فرنسا : على خلفية تحركات بعض الخلايا النشطة التابعة للقاعدة وضرب ناقلة البترول الفرنسية قرب السواحل اليمنية .
- كينيا وتنزانيا : على خلفية تفجير السفارتين الأمريكيتين .
- أستراليا : على خلفية قتل رعاياها في تفجير بالي بإندونيسيا .
- الفلبين : على خلفية الدعم المقدم لجماعة أبو سياف في جزيرة مورو
- مجموعة الدول العربية والإسلامية التي كانت مسرحا لعمليات القاعدة مثل : السعودية واليمن والكويت والجزائر والمغرب وإندونيسيا وباكستان وطاجكستان .
- هذا بالإضافة لإيران على خلفية الخلاف مع حركة طالبان ، والتحالف الشمالي الأفغاني المعارض بقيادة برهان الدين رباني .

هذه بعض ملامح قائمة الأعداء . . وإذا كان البعض سيقول : إن القاعدة لم تقصد حدوث هذا فإن ردنا عليه سيكون : إن تجبيه الأعداء بهذه الصورة يعتبر خطأ فادحا سواء تم ذلك عن قصد أو بغير قصد . وكما قيل :

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وإذا خاصمت هذه الإستراتيجية المنطق والحكمة فهي قد خالفت من قبل ذلك السيرة النبوية الراشدة ، السياسة الشرعية الواجبة .

السياسة النبوية الراشدة وفن تحييد الأعداء : فإذا كانت القاعدة مارست - بقصد أو بدون قصد - فن تجبيه الأعداء ، بحيث أنها أدخلت نفسها ودولة أفغانستان

الإسلامية الوليدة في صراع مع كل القوى المؤثرة في العالم ، فإن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد ترك لنا ميراثا ثريا على النقيض من فن تجبيه الأعداء ، وترك لنا مثالا حيا رائعا لكيفية إدارة الصراع ، وكيفية تحييد الخصوم ، وكيفية بناء الدولة دون إقحامها في المغامرات التي هي أشبه بالمقامرات .

فقد كان حال دولة الإسلام التي قامت بالمدينة المنورة على إثر هجرة الرسول صلى اللَّه عليه وسلم وصحابته إليها مشابها لحال دولة أفغانستان ، عندما سيطرت عليها حركة طالبان . فدولة النبي صلى اللَّه عليه وسلم كانت لا تتعدى حدود المدينة المنورة والوضع في داخلها وحولها وبعيدا عنها يموج بأعداء كثر متربصين ، يمكن الإشارة إليهم باختصار كما يلي :

أولا : أعداء الداخل :

وجد في المدينة المنورة أعداء عديدون متربصون بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم ودولته :

- اليهود : فقد كان يقطن المدينة المنورة بطون ثلاثة من اليهود : بنو قينقاع ، بنو النضير ، بنو قريظة ، وقد أكلهم الحسد لظهور نبي من غيرهم ، ووصف اللَّه حالهم في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .
- وهناك عبد اللَّه بن أبى سلول ومن يتعصب له ، وقد أكله الغيظ لأن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قد جاء إلى المدينة وأهلها كانوا يعدون العدة لتتويجه ملكا عليها ، وحتى بعد أن أسلم ظل يمثل رأس النفاق ، والمنافقين الذين قال اللَّه تعالى فيهم : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة : ١٠١] وهم الذين قال قائلهم : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

هذا بالإضافة إلى من لم يكن دخل في الإسلام بعد من سكان المدينة .

ثانيا : الأعداء في داخل الجزيرة العربية :

وتأتي قريش على رأس هؤلاء المتربصين بتلك الدولة الناشئة ، فقريش تعتبر القضية قضيتها ، وأنها المعنية بوضع حد لهذا التمرد على عقيدتها وسلطانها .

وبالإضافة لذلك فإن موقف القبائل العرب التي رفضت نصرة النبي صلى اللَّه عليه وسلم عندما كان يطلب منهم العون حين كان مستضعفا بمكة لا يتسم بالإيجابية تجاه هذه الدولة الجديدة .

ثالثا : الأعداء على الساحة الدولية :

كانت الساحة الدولية آنذاك تشهد صراعا محتدما بين إمبراطوريتين : فارس والروم ولقد ذكر القرآن الكريم جانبا منه في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ۝٤ ﴾ [الروم] ، ولقد شاءت إرادة اللَّه أن يجعل ظهور الدولة الإسلامية بالمدينة في وقت بلغ الصراع بين القوتين العظميين آنذاك ذروته ؛ مما منع استهدافهما لدولة الإسلام في وقت مبكر .

هذه هي خريطة الأعداء التي كانت أمام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، ومن الواضح أن الدولة الإسلامية الوليدة كانت فيها أشبه بجزيرة وسط بحر من الأعداء ؛ فماذا صنع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ؟

هل أعلن النبي الكريم صلى اللَّه عليه وسلم الجهاد على اليهود والصليبيين « الروم » والمشركين « قريش وحلفاؤها » ؟

هل ترك الرسول الحكيم صلى اللَّه عليه وسلم الجبهة الداخلية بالمدينة في حال احتراب داخلي وانطلق صوب قريش محاربا وفي اتجاه القبائل المشركة مقاتلا ؟

هل أرسل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم سرية من السرايا إلى عاصمة فارس أو عاصمة الروم ليوجه إليهما رسالة تحذير أو يحدث بها نكاية أو يوقع بهما استنزافا ؟

لقد كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم عبقريا في رسم الاستراتيجيات واختطاط السياسات ، واختيار الأهداف ، وتوظيف القدرات وقدم لنا نموذجا فذا للسياسة كيف تكون ؟ وللأولويات كيف تراعى ؟ وللفرص كيف تقتنص ؟

اعتمد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم استراتيجية تحديد الخصم وتحييد الباقين ، ولم يكن مبادرا صلى اللَّه عليه وسلم لأي من هؤلاء الأعداء بقتال ؛ لأنه أراد أن يهيئ الظروف المواتية لبناء دولة قوية ؛ ومن هنا كانت سيرته تعتمد على المبادأة بالخير والحفاظ على العهد واحتواء الخصوم ؛ انطلاقا من قوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤]

لقد بدأ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم البداية المنطقية حينما سارع إلى تأمين الجبهة الداخلية ، فلم يفجر قتالا مع اليهود بالمدينة ولكنه عقد معهم معاهدة تنظيم العلاقة بينه وبينهم فيما عرف بصحيفة المدينة [١] ، التي بمقتضاها كما جاء في أحد بنودها « وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم » ا.هـ .

أما المنافقون ورغم إيذائهم لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فلم يرتض اقتراح من اقترح عليه قتلهم قائلا : « لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » [٢] ،بل عندما يعرض عليه عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن أبى أن يتولى قتل أبيه إذا كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم قد أزمع قتله ، يرد عليه النبي صلى اللَّه عليه وسلم قائلا : « يا عبد اللَّه ما أردت قتله ولا أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا »[٣] ا.هـ .

أما القبائل المحيطة في المدينة فقد عقد الرسول صلى اللَّه عليه وسلم مع بني ضمرة[٤] موادعة على رأس أحد عشر شهرا من هجرته صلى اللَّه عليه وسلم نصت على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزونه ، ولا يكثروا عليه جمعا ، ولا يعينوا عليه عدوا .

وكذلك عقد ميثاقا شبيها مع بني مدلج على رأس ستة عشر شهرا من الهجرة .

---

(١) راجع نص هذه الصحيفة في : « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » . جمعها الدكتور محمد حميد اللَّه الحيدري أبادي ، الناشر : مكتبة مدبولي ط٢ لعام ٢٠٠٠م [ص : ٥] .

(٢) زاد المعاد : [٣ / ٢١٤] .

(٣) راجع القصة في المنهج التربوي للسيرة النبوية للأستاذ منير الغضبان دار الوفاء للطباعة والنشر ودار المنار ط ٢ سنة ١٩٩٣ [٢ / ١٦٧] .

(٤) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة [ص : ١٤٤] .

حتى مع قريش فلم يبدأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قتالا معهم ولم يقصدهم في ديارهم واستمر الحال على عدم قيام الرسول صلى اللّه عليه وسلم بغزو قريش حتى انتهاء غزوة الأحزاب عندما قال : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

أما على الجبهة الدولية فلم يستهدف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أيا من الإمبراطوريتين بل إن جيوش الإسلام لم تنطلق صوب الشام إلا في رجب سنة تسع من الهجرة فيما يعرف في السيرة بغزوة تبوك والتي لم تشهد قتالا بين الطرفين والتي سبقتها مناوشات بين المسلمين والروم في مؤتة ، أما فارس فلم تتوجه الجيوش الإسلامية إليها إلا في عهد خلفائه صلى اللّه عليه وسلم .

هذا هو صنيع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأين منه صنيع القاعدة ؟

لقد اختارت القاعدة سياسة تجميع الأعداء ، وفرضت باختيارها هذا على دولة أفغانستان مواجهات وضغوطا كانت في غنى عنها ، ولك أن تتصور المأزق الذي يمكن أن تجد دولة نفسها في مواجهته عندما تأتيها السهام من كل حدب وصوب ، وقبل أن تحسم معركتها الداخلية مع تحالف الشمال المعارض .

لك أن تتصور حجم المشاكل التي يمكن أن تواجه دولة وليدة عندما تجد نفسها في مواجهة أمريكا كقوة نووية عظمى منفردة ، وروسيا الاتحادية كقوة نووية عظمى ، والهند كقوة آسيوية كبرى ، وحكومات طاجكستان وإيران ، وأوروبا ، واليهود بالإضافة إلى تفسخ وتدهور علاقاتها مع الأصدقاء في باكستان ، والسعودية ، والإمارات .

لك أن تتصور كل هذا ؛ كي تعرف حجم المأزق الذي فرضته القاعدة على حاضر ومستقبل حركة طالبان ودولة أفغانستان .

إن استراتيجية القاعدة حينما أسفرت عن هذا العدد الهائل من الأعداء لم تكن فقط مجافية للمنطق السليم إنما كانت من قبل ذلك مغفلة للسياسة النبوية الراشدة ، فأتت الرياح بما لا تشتهي السفن ، وضاعت الدفة من يد الملاح ، وأشرفت السفينة على الغرق .

٤- استراتيجية القاعدة .. ومخاصمة ترتيب الأولويات

لابد أن تعكس الاستراتيجية المتبناة ترتيبا صحيحا لأولويات العمل والأداء ، ومتى توفر ذلك فالفرصة مهيأة أمام هذه الاستراتيجية لتحقيق نجاحات على أكثر من صعيد .

ولذلك عندما حدد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم استراتيجيتة في التعامل مع الأوضاع المحيطة في لحظة وصوله إلى المدينة وعند تأسيس دولة الإسلام الأولى لها كانت تعكس تلك الاستراتيجية ترتيبا صحيحا للأولويات ، وتقديرا سليما للقدرات .

فالدولة الوليدة لا قدرة لها على مواجهة كل الأعداء ، والأعداء منهم من هو متربص ، ومنهم من هو كامن ومترقب ، ومنهم من هو منشغل بصراعات مع آخرين ، والحكمة تقتضي تحديدا للأولويات في ظل ضآلة القدرات وكثرة التحديات ، ومن هنا كان ترتيب الأولويات الذي عكسته استراتيجية تحييد الأعداء متمثلة في :

١- الحفاظ على جبهة داخلية متماسكة تهيئ الأوضاع لبناء دولة قوية تتمتع بالمناعة الذاتية ضد أخطار الداخل والخارج ، ولقد ترجم الرسول صلى اللّه عليه وسلم ذلك باتخاذ إجراءات عدة منها : المؤآخاة بين المهاجرين والأنصار وترك قتل المنافقين ، وعقد معاهدة مع اليهود بالمدينة على التفصيل الذي أشرنا إليه من قبل .

٢- تأمين المدينة من أي أخطار تهددها من المحيط الملاصق لها ، ومن هنا كانت الموادعة التي قام بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع بني ضمرة ، وبني مدلج كما أشرنا إليه من قبل .

٣- الاستعداد لرد أي عدوان من قريش على المدينة والعمل على تحييد باقي الأعداء المتربصين .

هذا الترتيب النبوي للأولويات هيأ للدولة المسلمة آنذاك كسب الجولة في نهاية المطاف .

ولكن ماذا عن استراتيجية القاعدة ؟ إذا ما نظرنا إلى استراتيجية القاعدة لوجدناها سارت في اتجاه معاكس ، فبدلا من مساعدة حركة طالبان على حسم المعارضة الداخلية لها في الشمال ، اندفعت في اقتحام صراعات ولدت مزيدا من الأعداء والضغوط عليها وعلى طالبان ، وبدلا من أن تدعم القاعدة مبدأ بناء دولة إسلامية قوية إذ بها تتحرك بعقلية التنظيم السري في أهدافها وأساليبها ، وبدلا من أن تحدد القاعدة أولويات المواجهة لديها إذ بها تدخل في صراع مع أكثر دول العالم مما ولد محيطا معاديا يحيط بها وبحركة طالبان .

وبدلا من أن تحصر القاعدة صراعها مع عدو واحد يمكن أن تكون قدرتها تسمح لها بتوقع الانتصار عليه ، إذا بها - وهي تنظيم سري - تتعامل وكأنها تمتلك قدرات دولة عظمى ، وتندفع صوب الدخول في مواجهات ضد أمريكا تصل إلى قمتها بضربها في عقر دارها - وهو ما لم يجرؤ عليه الاتحاد السوفيتي من قبل إبان الحرب الباردة - وإلى الدخول في صراعات مع دول أخرى على خلفية دعم الحركات الإسلامية في الشيشان وكشمير وداغستان والفلبين وغيرها ، والسؤال أين الأولويات ؟ وأين القدرات التي تسمح بكل هذا ؟

ثم يأتي سعي القاعدة لإشعال حرب على أساس ديني مع الصليبيين واليهود ليطرح سؤالا بالغ الأهمية وهو : هل إشعال مثل هذه الحرب وفي هذا الوقت يمثل أولوية ؟ وهل هناك قدرة فعلية لتحقيق الانتصار فيها ؟

ولا يقول قائل : إن هذا الخلل في ترتيب الأولويات تتحمل مسئوليته حركة طالبان لا تنظيم القاعدة ؛ فمشكلة هذا القول أنه لا يلتفت إلى حقيقة العلاقة بين قيادة تنظيم القاعدة وحركة طالبان ، تلك العلاقة التي جعلت حركة طالبان تابعة لتوجهات أقطاب القاعدة وأفكارهم .

وهكذا عندما تتبنى القاعدة تلك الاستراتيجية دونما وجود ترتيب صحيح للأولويات ، أو مراعاة لمحدودية القدرات فإن النتائج لابد أن تكون مأساوية .

٥- استراتيجية القاعدة .. استراتيجية « الجمود »

الذي يتأمل في استراتيجية القاعدة سيجد أنها تقوم على اختيار طريق واحد لحل الصراعات التي اقتحمتها ، وهذا الطريق هو طريق استخدام القوة فحسب ، وهذا الطريق لا ينتهي السير فيه إلا ببذل آخر قطرة دم من أنصارها .

وهذا الجمود والعكوف على استراتيجية واحدة لا يحقق المرونة اللازمة لتحقيق الأهداف الموضوعة ولا يسمح بإعادة النظر في ترتيب الأولويات أو المواءمة بين القدرات وفاعلية الاستراتيجيات .

وكما غفلت القاعدة عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في اختطاط الاستراتيجيات ، غفلت أيضا عن سمة المرونة في التعامل مع الواقع ، تلك السمة التي مارسها رسول الله

صلى اللّه عليه وسلم باقتدار حينما صبر على الأذى تارة وصالح وعاهد ووادع تارة ، وتحالف وتعاون تارة ، وقاتل عندما توفرت أسباب وشروط الجهاد وانتفت موانعه .

لم يكن في وسع أحد العيب على القاعدة إذا وادعت أقواما وصبرت على آخرين ، وتحالفت مع البعض ، واعتزلت البعض الآخر ، وقاتلت من يستحق القتال في إطار يتناسب مع القدرات ولا يطيح بترتيب الأولويات ولا يسبب مزيدا من المفاسد والأضرار .

لم يكن من حق أحد أن يعيب عليها إذا فعلت ذلك في ظل الانضباط بالضوابط الشرعية .

ماذا عليها لو أنها أعلنت هدنة مع بعض من استعدتهم ولو من طرف واحد ؟ وماذا عليها لو أنها أوقفت عملياتها لمدة معينة ودعت لتفاوض وحوار مثمر مع البعض الآخر ؟

لم يكن بوسع القاعدة أن تفعل ذلك لأنها - وللأسف - لا ترى إلا استراتيجية واحدة وهي استراتيجية الصراع ، ولا تعتمد إلا وسيلة واحدة وهي وسيلة الجهاد ، وهذه مسألة سوف نزيدها بيانا في المبحث القادم .

○ ○ ○

خامسا : استراتيجية القاعدة .. « النتائج »

إذا كان كل ما سبق يمثل توصيفا تقييميا لاستراتيجية القاعدة ؛ فإن التقييم لا يكتمل إلا بالنظر إلى النتائج التي تمخضت عن وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ .

وإذا كنا نتفق مع من يقول : إن النتائج قد لا تدل على المحق من المبطل ، فقد ينتصر المبطل وينهزم المحق ، لكننا نعلم أن النتائج السلبية دليل على وجود خلل ما استدعى حدوثها ودليل على حرمان من التوفيق أدى لوقوعها .

ونحن إذ نقيم نتائج استراتيجية القاعدة فإننا نضع في الحسبان ما تولد من آثار ونجم من تحديات عن زلزال ١١سبتمبر لعام ٢٠٠١م ، حيث قيل - وبحق - إن العالم بعد الحادي عشر من سبتمبر يختلف عن العالم قبله .

ومن هنا سوف تتنوع تلك النتائج وتتعدد مستويات تأثيرها من التأثير على الإسلام كدين وعلى الجهاد كمفهوم وعلى المسلمين كوجود سواء على شكل دولة أو حركة أو أقلية أو جالية وستمتد تلك التأثيرات والنتائج لتشمل التأثير على استراتيجيات أمريكا والدول الكبرى وعلى إعادة توزيع التوازنات الدولية في المناطق الهامة والحيوية بالعالم .

نتائج سلبية : والملاحظ أن النتائج والآثار التي نجمت عن تلك الاستراتيجية تصب في غير مصلحة الأمة الإسلامية هذا ما يمكن أن نستبينه من خلال استعراض النتائج الآتية :

١- انهيار الدولة الإسلامية الوليدة في أفغانستان :

مثلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر لعام ٢٠٠١م لطمة قوية للهيبة الأمريكية بضرب رمزي القوة المالية والعسكرية فيها - برجي مركز التجارة العالمي والبنتاجون - مما استدعى ردا سريعا قاسيا في اتجاه إنهاء حكم حركة طالبان في إمارة أفغانستان الإسلامية ، وإعادة رسم شكل الحكم بها وفقا للرؤية الأمريكية ، هذه النتيجة تعد نتيجة طبيعية لانطلاق القاعدة وتطبيق استراتيجيتها من على الأراضي الأفغانية ، وتعد هذه النتيجة من أسوأ الآثار الوخيمة التي نجمت عن تلك الاستراتيجية حيث أطاحت بحلم راود الكثيرين في إمكانية بناء دولة إسلامية عصرية تأخذ بأسباب البقاء والقوة ، وكان الغريب في استراتيجية القاعدة أنها استهدفت بها إخراج أمريكا من الخليج ، أو مساعدة الحركة الشيشانية أو الكشميرية في تكوين دولة إسلامية ، وذلك بالمغامرة بوجود دولة إسلامية

قائمة بالفعل في أفغانستان وكانت النتيجة عدم إخراج أمريكا من الخليج وعدم إقامة دولة إسلامية سواء في كشمير أو الشيشان أو داغستان ، وفي نفس الوقت انتهت المغامرة بضياع دولة طالبان ، فلم تحقق هذه الاستراتيجية المفقودة ولم تحفظ الموجود .

٢- مطاردة القاعدة والحركات الإسلامية في إطار العولمة الأمنية :

أدت استراتيجية القاعدة خاصة بعد الحادي عشر من سبتمبر إلى عولمة الملاحقة الأمنية ليس بالنسبة للقاعدة فحسب وإنما بالنسبة للعديد من الحركات الإسلامية عبر العالم التي شملتها القائمة الأمريكية للحركات الإرهابية ، وهكذا حُرمت القاعدة من الملاذ الآمن في أفغانستان ، وبدأت مرحلة المطاردة والملاحقة لها عبر العالم .

٣- الإضرار بقضايا الأقليات الإسلامية بالخلط المتعمد بين حركات المقاومة للاحتلال والإرهاب :

وجدت أطراف عديدة في استراتيجية القاعدة خاصة بعد الحادي عشر من سبتمبر فرصة لحسم صراعها مع الأقليات الإسلامية الساعية للحصول على استقلالها أو نيل حقوقها بدعوى أنها تمثل إرهابا شبيها بإرهاب القاعدة ضد أمريكا ، ففي الشيشان سعت روسيا بوصم الحركة الشيشانية الساعية للاستقلال بالإرهاب ، وطالبت المجتمع الدولي بدعمها أو بالسكوت عن ما تقترفه من مذابح وجرائم وحشية ، ضد كل الأعراف الإنسانية .

وفي كشمير وجدت الهند الفرصة سانحة كي تمارس نفس المنطق الروسي بالشيشان ، وفي الفلبين جاءت محاولات الحكومة الفليبينية لتجبيه العالم ضد حركة أبو سياف الساعية للاستقلال بجزيرة « مثدنا » وبثمرتها عندما وافقت أمريكا على دعم جهود الحكومة الفلبينية في مقاومة الإرهاب .

وهكذا ضاع الخيط الفاصل بين مقاومة الاحتلال المشروعة وما يسمى بالإرهاب مع سبق الإصرار والترصد .

٤- إفساح المجال أمام تحقيق الأهداف والطموحات الإسرائيلية :

وجدت إسرائيل ضالتها في أحداث الحادي عشر من سبتمبر ؛ حيث اعتبرها الساسة الإسرائيليون فرصة لبيان أن ما تعانيه إسرائيل من عمليات المقاومة الإسلامية الفلسطينية يماثل ما شهدته أمريكا في الحادي عشر من سبتمبر ، ويكفي أن نقرأ تعليق بنيامين نتنياهو

رئيس وزراء إسرائيل الأسبق على أحداث الحادي عشر من سبتمبر حيث قال : « يؤسفني أن يحتاج العالم الحر كل هذا العدد من الضحايا لكي يتفهم حقيقة المعركة التي تخوضها إسرائيل في الشرق الأوسط باسم الحضارة الغربية والعالم المتنور في مواجهة قوى الشر والظلام ممثلة في قوى إسلامية متطرفة تريد أن تعيد العالم إلى العصور الوسطى ، هدف هؤلاء واضح وجلي ، وهو استغلال الحرية التي تمنحها الديموقراطيات الغربية لكي يتمكن من ضربها والقضاء عليها ، إنكم ستدركون سريعا أن إسرائيل هي التي تخوض الحرب نيابة عن الغرب ودفاعا عن قيمه ومبادئه » .

وقال مائير شطريت وزير العدل الإسرائيلي السابق : « ستدرك الدول التي تشكل منظومة العالم الحر عاجلا أن عليها أن تشكر إسرائيل لأنها تتصدى لقوى الإسلام المتطرف ، فإسرائيل خط المواجهة الأول في هذه المنطقة التي تحلم شعوبها أن تعود أيام غابرة ، كان العرب والمسلمون يفرضون الجزية على اليهود والمسيحيين » .

وهكذا حصدت إسرائيل بضربة واحدة مكاسب كثيرة سواء على مستوى حصار المقاومة الفلسطينية ، أو التخلص من تهديد العراق ، أو بتحجيم حزب اللّه ، أو الضغط على سوريا لتقديم تنازلات استراتيجية مؤلمة ، أو على مستوى إشغال إيران وليبيا والسودان بالضغوط الأمريكية عليهم .

٥- ابتناء أمريكا لاستراتيجية تستجيب لأجندة اليمين المسيحي في الاندفاع نحو صراع الحضارات :

أدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى إنهاء الجدل حول الإستراتيجية الأمريكية عقب الحرب الباردة ، وتم رسم تلك الاستراتيجية انطلاقا من دراسات المحافظين الجدد المرتبطين بدوائر اليمين المسيحي الأصولي ، وهو ما كان يعني اندفاعا في اتجاه تفعيل الصراع مع الإسلام ، وظهر ذلك تحت عنوان الحرب الاستباقية والتي ترجمت نفسها في عدة اتجاهات هي :

- دعم إسرائيل في صراعها ضد المقاومة الإسلامية الفلسطينية ، ودفع الأمور بالمنطقة لتحقيق النبوءة التوراتية بعودة المسيح ، وإعادة بناء الهيكل وانتصار اليهود على الوثنيين المسلمين في هرمجدون .
- التهام العراق والسيطرة على مخزونه النفطي .

- تهديد الدول الإسلامية التي تمثل خطرا على إسرائيل بإدخالها في دول محور الشر الذي يجب استباق خطره ، وهو ما بدأت بوادره مع سوريا وإيران خاصة ، وليبيا والسودان بدرجة أقل .
- ابتناء سياسة جديدة في وسط آسيا تقوم على أساس احتواء الخطر الإيراني وحصار الحركات الإسلامية في دول وسط آسيا مع الوجود العسكري الأمريكي عبر قواعد عسكرية بها وهو ما حدا بالبعض إلى القول [1] : « أليست هذه المصلحة هي محاربة الحركات الإسلامية في مجتمعات آسيا الوسطى وغرب الفلبين وكشمير ، وكذلك تقييد إيران واحتوائها ، وتصفية مستقبل القوة النووية الباكستانية المستقلة .

٦- تعرض الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا خاصة لمضايقات عنصرية وتشديد قوانين الهجرة واللجوء السياسي بها [2] .

٧- التأثير السلبي على الإسلام :

عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر تم ترويج صورة نمطية للإسلام تميل وصمه بالعنف وبالخطر الهائل والعدو البديل ، وعلى سبيل المثال نجد وزير العدل الأمريكي يقول : إن اللّه في الإسلام يطالبك بإرسال ابنك ليقتل من أجله أما في المسيحية فالرب يرسل ابنه ليقتل من أجلك » ا.هـ .

---

(١) راجع ذلك في حروب القرن الواحد والعشرين ووضع الأمة الإسلامية « رؤية أولية » د.نادية مصطفى والمنشور في مجلة السياسة الدولية عدد يناير ٢٠٠٣م رقم ١٥١ [ص : ٨٠] .

(٢) نشر في الأهرام بتاريخ ٢٠٠٣/٧/١٧م [ص : ٤] ما يلي : جاء في التقرير الذي أعده مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية « كير » أن السلطات اعتقلت ٧٢٨ مسلما وعربيا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تعرضوا خلال اعتقالهم للاعتداء اللفظي والجسدي وإعاقة اتصالهم بأسرهم ومحاميهم ، وقد قامت وزارة العدل الأمريكية أيضا بإستجواب ٨ آلاف مسلم وعربي ، وأخضعت نحو خمسين ألف مهاجر مسلم وعربي للتسجيل الاجباري لدى إدارة الهجرة ، وقبل أسابيع من بدء الحرب ضد العراق قامت السلطات الأمريكية باستجواب ١١ ألف مهاجر عربي وفيما يتعلق بالولايات الأكثر تمييزا ضد المسلمين جاءت كاليفورنيا في المرتبة الأولى بنسبة ١١٪ من إجمالي حوادث التمييز ضد المسلمين في أمريكا تليها فلوريدا ثم فرجينيا .

وفي أوروبا كانت تصريحات رئيس الوزراء الإيطالي بيرل سكوني أشد عدائية حين قال : « لقد قرأت أشياء عن الإسلام ووجدت ما قرأت سخافات لا يمكن مقارنتها أو وضعها على مستوى حضارتنا الأسمى من الأخرى ، علينا أن نكون فخورين بما لدينا وأن نعرف أن حرية الأفراد لا تقرها تعاليم العالم الإسلامي الذي يقف محلك سر منذ ١٤٠٠ سنة مضت والمثال الذي يدل على ما أرى أحوال المرأة بالعالم الإسلامي .. إن الإسلام ومناهضي العولمة أعداء لأسلوب حياة الغرب ، ويجب أن نمد يد العون إلى الدول العربية المعتدلة ، ومساعدتها بمبادرات محددة حتى تتغلب على التطرف الديني » .

وقال : « من واجب الغرب أن يفرض قيمه ولو بالقوة على الشعوب وإن الغرب قد قام بذلك بالفعل في العالم الشيوعي وقسم من العالم الإسلامي ولكن ما يزال هناك للأسف قسم متبق من العالم الإسلامي بعيش متخلفا ١٤٠٠ سنة » ا.هـ .

وبالإضافة لذلك فإن استراتيجية القاعدة ولدت مفهوما للجهاد يفتقر إلى الشرعية أو العقلانية ؛ حيث تتم ممارسته بمعزل عن حساب القدرات المطلوبة أو المقاصد والمصالح المشروعة .

وكما أدت تلك الاستراتيجية إلى تعريض الهوية الإسلامية إلى عملية تغيير لصالح القيم والهوية الغربية ؛ تبدت في المحاولات الخبيثة لتغيير المناهج التعليمية ، أو فرض بعض الآراء الغربية في العديد من القضايا المتعلقة بالمرأة على وجه الخصوص .

٨- أدت استراتيجية القاعدة إلى إحداث تقارب بين أمريكا وأوروبا الغربية حول العديد من القضايا بعدما كان الخلاف بينهما يزداد يوما بعد يوم في العديد من القضايا مثل الدرع الصاروخي ، والأغذية المعالجة بالهندسة الوراثية ، والتنافس على الأسواق .

تلك هي أبرز النتائج التي أسفرت عنها استراتيجية القاعدة والتي يحلو للبعض تلخيصها في :

« القاعدة دمرت برجين وأمريكا احتلت بلدين . يقصدون أفغانستان والعراق » .

○ **ألا توجد نتائج إيجابية ؟**

قد يقول البعض ألا توجد أي نتيجة إيجابية لتلك الاستراتيجية التي اختطتها ونفذتها القاعدة ؟

فنقول : إن العبرة هنا برجحان المفاسد أم المصالح عند تزاحمهما ؟ حتى لو اعتبر بعض أقطاب القاعدة أن هذه الاستراتيجية تحقق بعض المصالح فلا قيمة لأي مصلحة في ظل هذه المفاسد العديدة التي ذكرناها منذ قليل.

نعم لقد كانت في تلك الاستراتيجية نقطة إيجابية لا تنكر وهي تلك التي تبلورت في اتجاه عدم الدعوة إلى الدخول في مواجهات بين الحركات الإسلامية والنظم التي تعيش في كنفها ، لكن الممارسة العملية للقاعدة أوجدت صراعا بينهما وبين تلك النظم بطريق غير مباشر ؛ عندما استهدفت الأمريكان واليهود والصليبيين على أراضيها .

نعم حملت استراتيجية القاعدة دعوة الجهاد والتضحية وقدمت أمثلة عملية لذلك ، **لكن المشكلة تأتي من أن القاعدة قدمت مفهوما للجهاد بعيدا عن الانضباط بالضوابط الشرعية ، أو الالتزام بترجيح المصالح على المفاسد وحساب المآلات ومراعاة القدرات ، وهذا المفهوم يحتاج لترشيد كي لا يكون الجهاد تضحية في غير ميدان أو فداء قبل الأوان .**

نعم ، قد تتحرك أمريكا في بعض القضايا الإسلامية بشكل إيجابي لكسب الرأي العام الإسلامي وكي تسحب البساط من تحت أقدام القاعدة ، لكن يجب التنبه أن ذلك لو تم فسوف يكون بالصورة التي تنسجم مع المصالح الأمريكية وبما لا يجعل نتائج هذا التحرك يصب في خانة التيارات الإسلامية التي قد تكون هي كبش الفداء لتحريك هذه القضايا .

نعم قد تضغط أمريكا على حكومات تمارس كبت الحريات ، والقمع ضد المعارضين الإسلاميين ؛ لإعطائهم هامشا من الحرية يمنع انفجارهم في اتجاه أمريكا ، لكن يجب التنبه إلى أن مثل هذه الضغوط لن تقف عند هذا الحد ؛ إنما ستسعى لتنال من الهوية الإسلامية لتلك البلدان التي استجابت إليها .

وقبل أن نغادر استراتيجية القاعدة عرضا وتقييما لابد من القول إن هناك من يريد منا **أن نتعامل مع إخوة القاعدة بمنطق « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما « بالمفهوم الجاهلي قبل أن يهذبه المنطق النبوي .**

البعض يريد منا أن ننصر القاعدة ظالمة أو مظلومة ، ويرى أن غير ذلك يكون من قبيل الإساءة للمجاهدين وعونا للظالمين .

وهذا منطق لا يستقيم ، فمبدأ « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » هذبه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عندما سئل كيف ننصره ظالما ؟ قال : أن تكفه عن ظلمه »[1] .

منطق البعض هذا قد لا يستقيم أيضا مع كون الدين النصيحة كما قال صلى اللَّه عليه وسلم [2] فكيف تكون النصيحة إذا آثرنا الصمت وفضلنا السكوت ؟

ومنطق البعض هذا لا يستقيم أيضا مع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] فكيف يكون البيان وتم اعتقال اللسان بمثل هذا المنطق الفج ؟

نحن نرى أن الشجاعة المطلوبة ليست فقط في إبداء الرأي في وجه الحكام أو في وجه سياسات أمريكية أو إسرائيلية ، الشجاعة لا تكتمل إلا إذا كانت النصيحة في اتجاه الصف الإسلامي لترشيد أدائه وتصويب أخطائه .

إذا كنا نرى في رجال القاعدة صدقا في محبة الدين ورغبة في إعلاء شأنه فإلى هؤلاء نتوجه بالسطور الماضية والآتية : نصيحة للمؤمنين ، ووصية للصالحين ، وبيانا للمجاهدين ، ودعوة للمحبين المهمومين بحاضر أمة الإسلام ، ومستقبلها لعلها تكون شعاع نور يساعد كل أولئك على تبين الخطأ من الصواب في تلك القضايا .

○ ○ ○

(١) رواه البخاري [٢٤٤٤] ، والترمذي [٢٢٥٥] عن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه .
(٢) سبق تخريجه .

المبحث الثاني

استراتيجية القاعدة

فهم خاطئ لفريضة الجهاد

استراتيجية القاعدة .. خلل في فهم فريضة الجهاد

عندما أعلن عن قيام الجبهة الإسلامية العالمية لقتال الصليبيين واليهود والأمريكان ، سأل أحد القياديين في تنظيم القاعدة [1] الشيخ أسامة بن لادن عن مدى واقعية هذا الإعلان مبديا تخوفه من مخاطره وآثاره السلبية ليس على التنظيم فحسب وإنما على كل الحركة الإسلامية ، وعموم المسلمين في العالم ، وجاءت الإجابة تدور حول :

« إن هؤلاء لا يعرفون إلا منطق القوة ، نعم أعرف مخاطر هذا الخيار وأعلم صعوبة تحقيق النصر في ذلك الصراع ، وربما يحتاج هذا النصر جيلا أو أجيالا بعدنا ، ولكن يكفي أننا نجعل شعلة الجهاد متقدة ليتسلمها من بعدنا ليكمل الطريق » !!!

والمتأمل في هذه الإجابة سيكتشف وجود خلل ما في فهم فريضة الجهاد ، وهذا الفهم الخاطئ لفريضة الجهاد يقدم لنا جهادا مرادا لذاته ، يدخل في حيز الفعل والممارسة بعيدا عن حسابات القدرات ، أو اعتبار النتائج بمعزل عن حسابات المصالح والمفاسد .

وهذا الفهم الخاطئ لفريضة الجهاد يحتاج لمناقشة عميقة ؛ لأنه بمثابة المقدمة التي تتولد عنها الاختيارات والممارسات الخاطئة . وهو ما سنقوم به عبر أربعة مطالب هي :

المطلب الأول : الجهاد الحقيقة الغائبة .

المطلب الثاني : الجهاد فريضة من فرائض الإسلام .

المطلب الثالث : الجهاد وسيلة لا غاية .

المطلب الرابع : الجهاد وسيلة من الوسائل .

○ ○ ○

(١) هذا الحوار نقله إلى المؤلفون أحد قادة جماعة « الجهاد » المصرية خلال لقاء جمعهما بأحد السجون المصرية عقب تسليمه إلى مصر من إحدى الدول الآسيوية .

المطلب الأول :

الجهاد .. الحقيقة الغائبة

نظرة الإسلام للحرب :

لم يغفل الإسلام عن أنه دين جاء لينظم حياة البشر لا الملائكة ، البشر بكل نزعاتهم الخيرة وأيضا الشريرة .

لم يحلق الإسلام في سماء الخيال متطلبا سموا بشريا - لا ينال - للصبر على الظلم والكف عن الانتصار من العدوان ، ولم يوغل في المثالية ويطلب من الناس إدارة الخد الأيسر ليتلقى لطمات المعتدي بعد أن يفرغ من خدهم الأيمن ، فهذا ضد الفطرة ومناف للمنطق ومستعص عند التطبيق .

ولم يكن للإسلام يوما كأولئك الذين يمارسون أبشع الحروب ويتفننون في القتل والتنكيل والذبح والتدمير ، وهم يترنمون بأن دعوتهم هي دعوة المحبة والحرية والإخاء والسلام .

كان الإسلام واقعيا في رؤيته لحقائق الحياة والنفوس والاجتماع الإنساني ، وما قد تحفل به من صراعات ونزاعات ، وما قد ينجم عنها من حروب ، فالإسلام نظر إلى الحرب في ذاتها كأمر تدعو إليه طبيعة الاجتماع البشري فلم يحاول إنكارها ، ولا أن يعارض مقتضيات الفطر فيها ، ولكنه اعترف بها كوسيلة لابد منها لدفع العدوان ، وتقليم أظافر الطغيان ، وكبح جماح المفسدين .

اعترف الإسلام بالحرب [1] ؛ لأنه يعلم أن طبيعة البشر وسنة الاجتماع كثيرا ما تفضيان إلى التنازع والبغي ، والتنكر للحق والاعتداء على الحريات والفتنة في الدين ، والإسلام شريعة عملية إصلاحية لا تغمض عينيها عن الواقع ، ولا تسترسل وراء الخيال . ولو لم يقرر الإسلام الحرب ويعترف بها لتكون وسيلة من وسائل المقاومة ودفع العدوان ، وإزالة العقبات عن طريق دعوته إلى الخير العام ؛ لقضت عوامل الشر والفساد التي تؤازرها دائما قوى الطغيان والعناد على هذه الدعوة وهي في مهدها ولحرمت الإنسانية أن تجتني ثمراتها الطيبة في معاشها ومعادها .

---

(١) راجع في هذا المعنى مجلة الرسالة الأعداد [٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦] سنة ١٩٤٦ مقالات للشيخ محمود شلتوت .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج : ٤٠] .

جاء الإسلام بالجهاد - إذن - لدفع تلك الأخطار وتجاوبا مع هذه الاعتبارات ، ومقدما للكون أنموذجا جديدا لم يكن مألوفا لديه .

فلقد اعتاد الكون على حروب البطش والتنكيل التي تعلى منطق الظلم والبغي والعدوان ، ففوجئ بنموذج جديد يعتمد منطق العدل الممزوج بالرحمة والسماحة والإحسان ، وكانت المفاجأة الإضافية أن ذلك النموذج السامق يأتي من أقوام كان يقول قائلهم :

وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء عذبا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ... ولكنا سنبدأ ظالمينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع ... تخر له الجبابر ساجدينا

حقيقة الجهاد بين المخطئين والمبطلين :

ورغم وضوح الفارق بين الجهاد في الإسلام ومفهومه لدى الآخرين ؛ إلا أن هناك من يطمس معالم هذا المفهوم تارة عن سبق إصرار وترصد لدى البعض ، وتارة في غمرة الحماس والغضب والثورة عند آخرين .

وسواء كان طمس معالم الجهاد يأتي من قبيل المبطلين له أو من قبيل المخطئين فيه فإن النتيجة واحدة وهي تقديم مفهوم مغلوط عن حقيقة الجهاد للإسلام قد يترسخ مع استمرار شبهات المبطلين وتتابع أخطاء المخطئين .

ومن هنا لزم البيان والتوضيح لتلك الحقيقة الغائبة للجهاد عن هؤلاء وأولئك ...

الجهاد .. الحقيقة الغائبة :

لأنه ما من أمة من الأمم إلا وهي لا تستغني عن الجهاد ؛ فلقد لبى الإسلام تلك الحاجة فقد ورد : « الجهاد ماض إلى يوم القيامة »[1] .

وما دام الجهاد حقيقة واقعة وقائمة إلى يوم القيامة فيجب إبانة معالم تلك الحقيقة بما يكشف عن مقصدها ويوضح معناها وجوهرها ، فالجهاد في الإسلام له فلسفة إنسانية عميقة ، ومقصد نبيل ، ومعان متعددة ، وضوابط حازمة حكيمة ، وجزاء عظيم وأجر جزيل .

ولنتناول حقيقة الجهاد عبر النقاط الآتية :

أولا : للجهاد .. معان متعددة متسعة :

إنه لمن الظلم البيّن حصر معنى الجهاد في سبيل اللّه في مباشرة القتل والقتال وامتشاق الحسام في وجه الخصوم ، فمفهوم الجهاد أشمل من ذلك ، وإن كان بالضرورة يدخل في معناه مجادلة الأعداء .

وإذا كنا لا نتفق مع من يقدم لنا مفهوما للجهاد محذوفا منه القتال فنحن أيضا لا نتفق مع من يذهب إلى عسكرة الجهاد .

فالمتأمل في الدلالة اللغوية والشرعية للجهاد في سبيل اللّه لابد وأن ينتهي إلى أنه يشمل معاني عديدة متنوعة ولكن اشتهر لدى العامة أن الجهاد إذا أطلق فلا يقه بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار على حد تعبير ابن رشد [2].

---

(١) الجهاد ماض إلى يوم القيامة كما قال الإمام البخاري [٦ / ٥٦] فتح . باب الجهاد ماض مع البر والفاجر لقول النبي صلى اللّه عليه وسلم : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » . والحديث في البخاري [٣١١٩] ، ومسلم [١٨٧٣ / ٩٨] بلفظ : « الخيل معقود في نواصيها نواصيها الخير إلى يوم القيامة والأجر والمغنم » عن عروة البارقي رضى اللّه تعالى عنه .

(٢) قال ابن رشد : « فكل من أتعب نفسه في ذات اللّه فقد جاهد في سبيله إلا أن الجهاد إذا أطلق فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية وهم صاغرون » راجع مقدمات ابن رشد على المدونة الكبرى للإمام مالك [١ /٣٧٩] ، راجع في تعريف الجهاد : لسان العرب ، مادة جهد [١ /٧١٠] ، حاشية ابن عابدين [٤ /١٢١] فقه السيرة [ص : ١٣٤] .

فالجهاد لغة مأخوذ من الجهد والتعب ، وشرعا : المبالغة في إتعاب الأنفس في ذات اللَّه تعالى وإعلاء كلمته التي جعلها اللَّه تعالى طريقا إلى الجنة وسبيلا إليها وبذل الجهد في إقامة المجتمع الإسلامي ، وبذل الجهد في القتال هو نوع من أنواعه .

ومما يدل على اتساع معنى الجهاد وتنوع مدلولاته أحاديث عديدة لم تقصر معنى الجهاد على القتال فحسب ، ومن هذه الأحاديث :

- ما رواه أنس رضى اللَّه تعالى عنه أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » [1] ا.هـ .
- وعن أبي سعيد الخدري رضى اللَّه تعالى عنه أن رجلا سأل النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » [2] ا.هـ .
- وعن ابن مسعود رضى اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « ما من نبي بعثه اللَّه في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » [3] .
- وعن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما قال : جاء رجل إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد فقال : « أحي والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد » [4] .
- وعن أبي هريرة رضى اللَّه تعالى عنه عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل اللَّه » وأحسبه قال : « وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر » [5] .

---

(١) رواه أبو داود [٢٥٠٤] وقال الألباني : صحيح .

(٢) رواه أبو داود [٤٣٤٤] ، والترمذي [٢١٧٤] وقال الألباني : صحيح .

(٣) رواه مسلم [٥٠ /٨٠] .

(٤) رواه البخاري [٣٠٠٤] ، ومسلم [٢٥٤٩ / ٥] .

(٥) رواه البخاري [٦٠٠٧] ، ومسلم [٢٩٨٢ / ٤١] .

فهذه الأحاديث جعلت من ضرورة الجهاد : الجهاد بالمال والجهاد باللسان والجهاد برعاية الوالدين من الضياع جنبا إلى جنب الجهاد باليد والقتال وبذل النفس والنفيس .

ومن الطبيعي أن تتنوع أشكال الجهاد لتنوع الأعداء [1] فهناك جهاد الكفار والمحاربين باليد واللسان والقلب وجهاد الفساق باليد واللسان والقلب ، وجهاد الشيطان بدفع ما يبثه من شبهات وترك ما يزينه من شهوات ، ثم هناك جهاد النفس لحملها على محاسن الأخلاق والترقي في مقامات الإيمان والعلم والعمل بالأحكام وتنقيتها من الخبائث والمدنسات .

وإذ ما نظرنا لهذه الدلالات في ضوء قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فلا بد أن ننتهي إلى المقدمة الصحيحة لممارسة الجهاد بالنفس لإعلاء كلمة اللّه هي الإعداد الشامل لكل أنواع القوة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتكنولوجية والايمانية ، وأي أمة تبغي النصر في الميدان لابد أن تكون قد جيشت قدرات الأمة عبر ممارسة الجهاد على مستوى التجديد الفكري والتقدم التكنولوجي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والايماني والإعلامي .

وإذا كان الجهاد في سبيل اللّه بالنفس في الأصل من فروض الكفاية ولا يتعين إلا في حالات محددة - كاجتياح العدو لأرض الإسلام أو على من يشهد القتال أو عينه الإمام أفهذا يعني أن الانشغال الأكبر للأمة سيكون من نصيب الجهاد بمعناه الشامل الذي يمكنها من بناء حصونها من الداخل ، لتصير أكثر مناعة وقدرة على مدافعة الأعداء وتحقيق الغايات .

ثانيا : الجهاد وسيلة من وسائل بلوغ الغايات الإسلامية النبيلة :

لم يكن الجهاد العسكري مرادا لذاته أو مقصودا في نفسه ؛ فلم تأت الشريعة به لمجرد إزهاق أرواح المعاندين أو المعتدين ، ولكنه كان وسيلة لبلوغ الغايات الإسلامية النبيلة .

(١) راجع هذا المعنى في منهاج المسلم للشيخ أبي بكر الجزائري [ص : ٣٠٠] .

وكون الجهاد يندرج في عداد الوسائل لا الغايات يرتب أمورا عديدة بالغة الأهمية :

أولا : وسيلة مرادة لغاية محددة متى انتفى إمكانية بلوغها من خلاله امتنع اللجوء إليه .

وثانيا : إنه ليس الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام المؤمنين لسلوكها ؛ إنما هناك وسائل عديدة متاحة لهم يسعهم اختيار من بينها ما هو أكثر ملائمة لأحوالهم وأكبرقدرة على تحقيق أهدافهم .

ثالثًا : إنه لو وجدت وسيلة أخرى غير القتال تحقق المطلوب فالواجب اللجوء إليها والأخذ بها دون غيرها .

رابعًا : إن الإسلام لم يجعل سياسة الصدام القتالى والصراع العسكرى هو السياسة اللزم اتباعها دون غيرها ، بل إنه أتاح لاتباعه انتهاج سياسات عديدة تتدرج من التعاون إلى التنسيق إلى التحالف إلى المسالمة إلى الدفع ، وجعل له مالحق فى تبنى أى منها دون أن يلحقهم ذم أو إثم ، وفى هذا المعنى يقول الشيخ البوطى[1] :

« ذلك لأن الجهاد فى أصل مشروعيته غير ناظر إل هجوم ولا إلى دفاع ، إنما هو يستهدف إعلاء كلمة اللّه تعالى وإشادة صرح المجتمع الإسلامى السليم وإقامة دولة اللّه فى الأرض وأيا كانت الوسيلة المتعينة إلى ذلك وجب اتباعها .

وقد تكون الوسيلة لظروف ما المسالمة وبث النصيحة والتعليم والإرشاد ، وعندئذ لا يفسرالجهاد إلا بذلك .

وقد تكون الوسيلة لظرف آخر الحرب الدفاعية مع النصح والإرشاد والتوجيه ، فهذا هو الجهاد المشروع حينئذ .

وقد تكون الوسيلة المتعينة لظروف أخرى الحرب الهجومية ، فهى عندئذ ذروة الجهاد وأشرفه .

وإنما يقدر الظرف ويعين الوسيلة ويحددها الحاكم المسلم المتبصرالواعى المخلص للّه ورسوله ولعامة المسلمين .

---

(١) فقه السيرة ص [٣٢٤] .

وهذا يعنى أن جميع هذه الوسائل الثلاث مشروعة فى تحقيق الجهاد ، على أن لا يطبق منها إلا ما تقتضيه المصلحة الآتية التى يقدرها الحاكم المخلص ، وتبادل التطبيق ليس من النسخ فى شيء » ا.هـ .

وسوف تكون لنا عودة لبسط الحديث فى هذا المعنى فى موضع قادم [1] بهذا الكتاب .

ثالثا : غايات الجهاد النبيلة [2] :

مقاصد القتال فى غير شريعة اللَّه عديدة ، ومنذ عرفت الشرية الحروبوالنزاعات وهى تضع لنفسها أهدافا وغايات من ورائها .

وصحيح أن بعض هذه الأهداف والغايات كانت فى مجملها نبيلة سامية ، ولكن بعضها الآخر - وهو الكثيرالغالب - كان مجرد انعكاس لنزعة الشر في الإنسان . فالحروب تنشب في بعض الأحيان دفاعا عن حق ، أو دفاعا عن عرض ، أو نصرة لمظلوم ، أو إجارة لمستضعف ، أو شهامة ومروءة ، أو أنفة وكرامة .

ولكنها في أحيان كثيرة تكون مجرد إشباع لنزعات الإنسان الذميمة ورغباته الدنيئة من حب التملك والسلطة ، أو لقهر الناس واستضعافهم ، أو حسدا وطمعا أو إفسادا وفجورا .

جاء الإسلام ليبطل كل هذا العدوان والعبث ، وليلغي كل هدف رخيص غير جدير بإراقة دماء هذا المخلوق المكرم ، ليجعل أهداف الحرب والقتال منحصرة في هدف واحد مجمل ، هو بمثابة الأصل الجامع لكل غاية نبيلة .. ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] . وذلك مقصد الجهاد في الإسلام .

وهو مقصود أرفع من أن يكون مجرد هدف أرضي ، ومبتغى أسمى من أن يكون مجرد مطلوب بشري ، بل عبادة وطاعة ، وتوجه لله وحده ، لا يقصد به سواه .. « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه » ذلك ما حصر فيه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الجهاد المقبول ، حين سئل : الرجل يقاتل شجاعة ، الرجل يقاتل حمية ، الرجل يقاتل ليرى مكانه ... أي ذلك في سبيل اللَّه ؟ [3] .

---

(١) راجع تفصيل هذه النقاط على صفحات هذا الكتاب .

(٢) راجع هذا المعنى على صفحات الكتاب ؛ حكم قتل المدنيين فى الشريعة الإسلامية للشيخ محمد مصطفى المقرئ [ص ٨] .

(٣) رواه البخاري [٢٨١٠] ، ومسلم [١٩٠٤ /١٥٠] عن أبى موسى الأشعري رضى اللَّه عنه .

فخرجت بذلك كل الغايات الدنيوية وانحصر الأمر في غاية كلية تتفرع منها غايات فرعية ، **غاية أساسية هي : في سبيل اللَّه ، ولتكون كلمة اللَّه هي العليا .**

فالقتال هنا يكون في سبيل إعلاء القيم التي أمر بها اللَّه كي ينتظم أمر الكون على هداها تلك القيم التي أشار التي إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

ثالثا : الجهاد تحرير لا استعباد ، حرية لا إكراه :

والجهاد بهذه النظرة يمثل حركة تحرير للإرادة الإنسانية من كل ضروب العبودية لبني الإنسان ، وقد كان الصحابي ربعي بن عامر رضى اللَّه تعالى عنه فقهيا بهذا المعنى حيث قال لقائد جيوش الفرس عندما سأله : ماذا جاء بكم ؟ فقال : إن اللَّه ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة اللَّه الواحد القهار ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . ذلك هو الإعلان الإسلامي عن مقاصد هذا الدين ، وعن مقصد الجهاد فيه .

فالجهاد هو لتحرير الناس وإطلاق إرادتهم ، لا لاستعبادهم وسحق شخصياتهم .

وهو لإقامة العدل بين الناس واحترام كرامتهم ، لا لظلمهم والجور عليهم والجهاد جاء لتتسع الحياة وتنفرج وتتهيأ لهم قنطرة إلى الآخرة لا ينصرفوا إلى ملذاتها وينعموا في شهواتها وهم عن الآخرة معرضون ، وإنما ليقيم لهم التوازن الدقيق بين طموحاتهم في الدنيا ومتطلبات الآخرة على ضوء قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

فالحرب شرعت في الإسلام لتأمين الحرية التي كفلها اللَّه لعباده ، فلا قبول في العدوان على كيانات البشر وحقوقهم ، ولا قبول بوصايا تفرض عليهم من قبل أنظمة أو ممالك أو اتجاهات ، حتى الإسلام نفسه لا يقبل بأن يكون عقيدة قهرية تفرض على الناس فرضا ، ولكن يريدهم فقط أن يختاروا بينه وبين غيره بكامل حريتهم وبمحض إرادتهم فإن اختاروا العيش في دولته لزمهم أن يحترموا قانونها ، وذلك حق تحتفظ به كل القوانين لنفسها .

إن مهمة القتال في الإسلام أن يزيل كل أشكال العبودية لغير اللَّه ، أن يكسر كل القيود المفروضة على عقول الناس ، أن لا يبقى لجهة أو لشخص سلطان على الخلق يحول بينهم وبين خيار ما تهديهم إليه عقولهم وتطمئن إليه قلوبهم .

فلا شك أن الدعوة إلى اللَّه ، والدخول في الإسلام لا يكون بالقهر والإكراه وإنما يكون طريقها الحجة والبرهان ، ولو تركه الناس يسري بحجته وبرهانه ، وخلوا بينه وبين العقول ، ولم يضعوا في طريقه العراقيل ، لما سفكت قطرة واحدة من الدم في سبيل اللَّه ، ولغزت دعوته العقول ، ونفذت إلى القلوب .

والإسلام يسلك في هذه الدعوة السلمية الإقناعية كل طريق تواضع عليه الناس في دعوتهم إلى المبادئ ودفاعهم عنها ، وبيانهم لمزاياها من خطب في المجتمعات ، ومن كتب يرسلها إلى الملوك والرؤساء ومن وفود يتلقاهم ويحسن وفادتهم ، ويبين لهم ما يدعوا إليه .

فالإسلام شرع الجهاد من خلال قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة:٢٥٦] تلك الآية [١] التي أنزلها اللَّه تعالى عندما جاء بعض الأنصار إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم ليجبروا أبناءهم الذين تهودوا عند اليهود منذ صباهم على اعتناق الإسلام فنزل الوحي بأن ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ لأن الإسلام حركة تحرير لا إكراه ، وظل هذا هو القانون الحاكم للمسلمين في فتوحاتهم ، وظل بقاء أرباب الديانات المختلفة في ديار الإسلام منذ دخوله إليها وإلى اليوم شاهد عدل على حقيقة الجهاد وغاياته النبيلة .

رابعا : الجهاد حكم شرعي :

جعل الإسلام من « الجهاد ذروة السنام » [٢] في بنيانه ؛ لما يقزم به من دور حيوي في حفظ البنيان من هجمات الأعداء وما يقوم به من تحرير إرادة الناس للإطلاع على الإسلام بحرية دون إكراه .

---

(١) روى أبو داود [٢٦٨٢] وقال الألباني : صحيح ، وابن حبان [١٤٠] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح والنسائي في الكبرى [٦ / ٣٠٤ / ١١٠٤٩] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما قال : كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا فأنزل اللَّه تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ .

(٢) رواه أحمد في المسند [٥/ ٢٣٤] وقال الأرناؤوط : صحيح بطرقه وشواهده وهذا إسناد ضعيف .

والجهاد في سبيل اللَّه بذلك يكمل منظومة الأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام لمعالجة الواقع وتنظيم الحياة .

وكون الجهاد حكما شرعيا يرتب على الفور نتيجة هامة ألا وهي : أن ضوابطه ومجالاته وأحكامه التفصيلية وأسبابه وشروطه وموانعه سوف تؤخذ من مشكاة الوحي لا من دواوين الحماسة أو ثورات النفوس الغاضبة أو هوى القلوب العابثة .

وكون الجهاد حكما شرعيا يعني عدة أمور :

أولا : إن الجهاد من حيث الأصل يندرج في فروض الكفايات التي إذا ما قام بها البعض من المسلمين سقط الإثم عن الباقي ، وهذا أمر منطقي يتسق مع رؤية الإسلام في توظيف قدرات الأمة وهو ما أكده قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

ومن العجيب أننا نجد اليوم من يوجب ليس الجهاد فحسب على كل الأمة الإسلامية من الصين شرقا حتى المغرب غربا ، بل يجعل التدريب على القتال والأسلحة فرض عين على كل مسلم ومسلمة !!

ثانيا : إن الجهاد في سبيل اللَّه قد يتعين في مواضع حددها العلماء ، وهذه المواضع هي : مداهمة العدو لديار الإسلام ، وعلى من شهد القتال ، وعند التحام الصفوف ، وعلى من يعينه الإمام للقتال ، ولاستنقاذ أسرى المسلمين .

ثالثا : إن الجهاد في سبيل اللَّه كحكم شرعي تتطرق إليه الأحكام التكليفية الخمسة أعني : الوجوب والاستحباب ، والحرمة ، والكراهة ، والجواز . وذلك سواء كان الجهاد يقع في جهاد الدفع أو الطلب ، أو كان فرضا عينيا أو كفائيا ، والذي يحدد ذلك مدى توفر الأوصاف الشرعية التي علق اللَّه سبحانه وتعالى على توفرها إنفاذ الجهاد ، ومدى تحقق المصالح المرجوة من وراء إنفاذه .

رابعا : إن القول بإنفاذ الجهاد يستوجب توفر عدة أمور هي : السبب الشرعي المبيح له ، والشروط الشرعية المتطلبة لإنفاذه ، وانتفاء الموانع التي تمنع منه ، وغياب أي من هذه الأوصاف يمنع من إنفاذ الجهاد ، ويخرجه من الوجوب ، وقد يدخله في عداد الممنوعات .

خامسا : إن الجهاد في سبيل اللّه تنطبق عليه القاعدة الشرعية التي تقرر : « كما شرع اللّه الأحكام شرع مبطلاتها وروافعها » [1] . فحكم الجهاد شرعه اللّه في مواضع وجعل روافع ترفعه ، وذلك مثل عقد الذمة يرفع حكم جهاد من عقدها من أهل الكتاب مع المسلمين .

سادسا : إن أحكام الجهاد التفصيلية بتنوع أصناف الذين أباح الإسلام قتالهم ، فلا يصح معاملة كل الخصوم معاملة الكفار ، رغم وجود فارق بينهم وبين الكفار ، ولذلك فإن الشريعة جعلت أحكاما متميزة لكل صنف من هذه الأصناف ، ومن هنا نجد كتب الفقه تعقد فصولا لقتال الكفار : قتال المرتدين ، قتال أهل الكتاب ، قتال البغاة ... إلخ .

سابعا : إن الجهاد في سبيل اللّه يرتبط ارتباطا جوهريا بأمرين هامين هما :

١- القدرة على إنفاذه ، وهو ما يوجب التأكد من توفرها ؛ لأن إهمال ذلك لا يعني سوى الدخول في مغامرات تدفع ثمنها الأمة وأبناؤها دون طائل من ورائها .

٢- تحقيق المصالح المرتبطة شرعا ودرء المفاسد القائمة والمتوقعة ، والمصالح المقصودة هنا ليست المصالح الشخصية حتى لو كانت سامية - كنيل الشهادة - إنما هي المصالح الجماعية للأمة والتي لا يصح إضاعتها أو تعريضها للخطر للحصول على مصلحة لبعض الأفراد ولو بالاستشهاد الذي قد تخلفه مفاسد تؤثر سلبا على حاضر ومستقبل الأمة بأسرها .

وبالنظر للدلالات السابقة سندرك أن تنزيل كلام أحكام الجهاد الشرعية على الواقع المعاش ، لابد أن يسند لأهل العلم والاجتهاد إذ ما أردنا إنفاذا صحيحا للجهاد يحقق المصالح ويدرأ المفاسد ، ويحقق الرضوان والقبول للمجاهدين من رب العالمين .

خامسا : الجهاد تضحية ، وفداء ، وإيثار للآخرة ، ولمصالح الدين :

أحسب أن اقتران حقيقة الجهاد بالفداء والتضحية أمر لا يحتاج إلى مزيد شرح أو كثير تدليل ، فليس هناك ما هو أغلى من النفس والمال والجهد والوقت عند البشر ، وهي أمور يقدمها المجاهد بكل رضى وترحاب وإصرار في سبيل اللّه ، وهذه التضحية تعكس إيمانا

(١) راجع هذه القاعدة في كتاب : « الفروق » للعلامة القرافي المالكي . عالم الكتب [٧٦/١] .

عميقا بمنهج الإسلام وإيثارا للآخرة وانتصارا على النفس والهوى والشيطان ، وذلك الانتصار في تلك المعركة مع النفس بمثابة المقدمة الضرورية اللازمة للإقدام على خوض القتال في ساحات الوغى لدحر الأعداء .

وإذا كان الجهاد قرينا للتضحية فليس معنى هذا أنها تضحيات من جنس المقامرات أو المغامرات ، أو تنطوي على التغرير بالأرواح وإزهاق الأنفس دون رجاء خير أو الوصول لمصلحة ؛ لأن مفهوم التضحية الذي يقدمه لنا الجهاد في الإسلام يرتبط بحسابات المصالح الكلية والقدرات الذاتية ، فهي تضحيات هادفة وتنطلق من حسابات صائبة .

وإذا كان من ينتدب نفسه للجهاد قد آثر مصلحته الأخروية على مصالحه الدنيوية ، فهو أيضا يؤثر عند إقدامه على تلك التضحية المصلحة الكلية المتعلقة بأمته ووطنه على مصالحه الذاتية ورغباته الشخصية ، فلا تضحية بغير هدف ، ومن ثم فلا جهاد من غير ميدان .

وإذا كان المنطق الغالب على كثير من الناس عند الاختيار وقت الأزمات : نفسي نفسي ، فمنطق المجاهد هو : أمتي أمتي ، وشأنه شأن هذا الشاب المجاهد الذي حمل على العدو وهو ينشد [1] :

أحسن بمولاك سعيد ظنا ... هذا الذي كنت له تمنى
تنحى يا حور الجنان عنا ... لا فيك قاتلنا ولا قوتلنا
لكن إلى سيدنا اشتقنا ... قد علم السر وما أعلنا

ثم حمل وهو يقول :

قد كنت أرجو ورجائي لم يخب ... أن لا يضيع اليوم كدي والتعب
يا من ملا تلك القصور باللعب ... ولولاك ما طاب وما طاب الطرب

ثم حمل على صف العدو فقاتل حتى قُتل .

وهو في ذلك يسير على خطى عبد الله بن رواحة الصحابي الجليل الذي أقبل على القتال وهو يرتجز :

(١) ذكر صاحب التاج والإكليل لمختصر خليل قصته نقلا عن ابن الجوزي . راجع التاج والإكليل [٤ / ٥٨٢] .

أقسمت بأنفسي لتنزلن ... لتنزلن أو لتكرهن
قد أجلب الناس وشدوا الرنة ... مالي أراك تكرهين الجنة
يا جند الجنات واقترابها ... طيبة وبارد شرابها
يا نفس إن لم تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... أن تفعلي فعلهما هديت

سادسا : الجهاد عدل ورحمة وسماحة :

جاءت أحكام الجهاد في سبيل اللّه وغاياته مترجمة لقيم العدل والرحمة والتسامح في تزاوج فريد بديع ، رغم أن الحروب عادة عنوانها الغلظة والقسوة ، وقلما تخلو من البغي والظلم والبطش والعدوان . وجاءت تلك الأحكام منطلقة من قوله تعالى : ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

ومن قول النبي صلى اللّه عليه وسلم : « من لا يرحم الناس لا يرحمه اللّه » (١) .

فمن عدل الإسلام ورحمته أن يجعل الجهاد في مقابلة كيد المعتدين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

ومن عدل الإسلام ورحمته أن يجعل الجهاد نصرة للمستضعفين والمظلومين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥] .

ومن عدل الإسلام ورحمته أن يكون الجهاد فيه لقطع الفتنة ، قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ .

وكم كان الإسلام عادلا حين اشترط إبلاغ دعوة الإسلام إلى الخصوم قبل أن تبدأ المنازلة .

---

(١) رواه البخاري [٧٣٧٦] ، ومسلم [٢٣١٩ / ٦٦] عن جرير بن عبد اللّه رضى اللّه تعالى عنه .

وكم كان الإسلام رحيما عندما منع قصد النساء والأطفال بالقتال وعندما حرم على أتباعه قتل أصحاب الصوامع والحرّاث والشيوخ والزمني ، ونهى عن المثلى ، وأن يقتل الرجل أباه .

ومن سماحة الإسلام أن لا يكره أحد من خصومه على اعتناقه ، بل يتركهم أحرارا وما يعتقدون وما يدينون .

ومن سماحته العفو عند المقدرة ، والصفح عند الغلبة ، وهذا العدل وتلك الرحمة وهذا التسامح هو الذي دفع أحد المستشرقين إلى القول : « إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم ، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية » .

وإذا كنا في هذا المقام لا نسعى لاستقصاء تلك الأحكام التفصيلية التي ترجمت قيم العدل والرحمة والتسامح إلى حقيقة واقعية ، فإننا نكتفي بذكر وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لقادته حين كان يقول لهم : « اغزوا باسم اللّه وفي سبيل اللّه قاتلوا من كفر باللّه ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تجبنوا ، ولا تقتلوا وليدا ، ولا امرأة ، ولا شيخا كبيرا » [1] .

○ **الكون بين نموذجين : « جهاد الرحمة ، وحروب القسوة » :**

نعم .. جاء الإسلام بجهاد كله رحمة وعدل ، وترجمه رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام واقعا معاشا ، وصار منهاجا متبعا توارثه كل من سار على هديه ، وأخذ بسنته الشريفة ومن ثم حفلت صفحات التاريخ بالنماذج العديدة التي عرفت حقيقة الجهاد والتزمت به في وقت كان غيرهم لا يرى في الحرب إلا البطش والقسوة , ومن هنا صار المشهد الكوني أمام نموذجين : نموذج للجهاد الرحيم ، وآخر للقتال بلا خلق أو ضمير .

ولعل في ذكر أمثلة لكل نموذج ما يوضح لنا بعضا من معاني الجهاد التي نبحث عنها ونبغي تسليط الضوء عليها .

○ **أمثلة من مدرسة الجهاد الرحيم :**

ولنقف مع موقفين عظيمين لقائدين مسلمين تربوا في مدرسة الجهاد الرحيم وساروا على هدى معلمهم العظيم ورسولهم الكريم صلى اللّه عليه وسلم .

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير [١ / ١٤٢ / ٣٣٢] ، وأصل الحديث رواه مسلم [٣/١٧٣١] .

فلنقف أولا مع « صلاح الدين الأيوبي » وقد نصره اللّه على الصليبين , ودان له بيت المقدس ، وصار تحت سيطرته بمن يعج بهم من الصليبيين .. فماذا فعل بهم ؟

لم يفكر صلاح الدين في الانتقام ولو فعل ما لامه أحد ، ولم يفكر في الإذلال ولو فعل ما فوجئ أحد ؛ لكن المفاجأة كانت فيما صنع مع أكثر من مائة ألف صليبي :

- فقد أعطى السلطان لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم .
- وسمح لهم بالخروج مقابل مبلغ يسير يدفعه المقتدر دون غيره .
- وأعطاهم أربعين يوما مهلة للخروج من بيت المقدس فخرج منه أربعة وثمانون ألف شخصا ، ولحقوا ببني جلدتهم في مدينة صور وعكا وصيدا ، وأرسل السلطان معهم من يحميهم .
- أطلق السلطان كثيرا من فقراء الإفرنج من غير فدية ، وأدى شقيقه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم ، ومن عجيب الأقدار أن قصد بعض هؤلاء الفقراء الصليبيين إلى أنطاكية فأبى أميرها الصليبي قبولهم فهاموا على وجوههم حتى آواهم المسلمون ، أما من ذهب منهم إلى طرابلس التي كان يسيطر عليها الصليبيون اللاتينيون ، فقد أبوا قبولهم ولم يكتفوا بذلك ، بل سرقوا أمتعتهم التي منحها لهم المسلمون !
- ثم كانت وقفة السلطان صلاح الدين الرحيمة بنساء الصليبيين حيت اجتمعن معه وتوسلن إليه قائلات : « نحن إما زوجات أو أمهات أو بنات من أسر أو من قُتل من الفرسان والجنود ولا عائل لنا ولا مأوى » وبكين وتأثر السلطان فأمر بإطلاق الأسرى من رجالهن ، أما اللواتي مات أولياؤهن ، فقد منحهن مالا كثيرا وسمح لهؤلاء جميعا والذين من عليهم بالانصراف ، فانصرفوا وهم يلهجون بالثناء عليه أينما ساروا ، فهل هناك رحمة أعظم من هذه ؟! وهل هناك إعلاء للكرامة الإنسانية مثل هذا ؟!

ولنقف وقفة أخرى مع السلطان العثماني محمد الفاتح وقد فتح اللّه له مدينة القسطنطينية في ١٤٥٣م ، وقد دخل كنيسة : آيا صوفيا ، التي لجأ إليها رجال الكنيسة واعتصموا بها ، فقابلهم مؤكدا حمايته لهم ، وطالبا من النصارى من أهل المدينة الذين فزعوا إليها العودة إلى منازلهم آمنين ، ثم أمر بجمع كل آثار القديسين التي نهبت يوم الفتح وسلمها إلى الكنائس والأديرة ، وترك لهم الحرية في اتباع كنائسهم وقوانينهم

الملية وتقاليدهم المتعلقة بأحوالهم الشخصية وكل ما يتعلق بحريتهم الدينية ، ثم جمع السلطان رؤساء الكنائس لينتخبوا بطريركا عليهم فاختاروا من يدعى : جورج سكولا ريوس ، وثبت السلطان هذا الانتخاب واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة التي كانت تتم في أيام ملوك الروم ، ومنحه السلطان حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بطائفته ، وعين معه في ذلك مجلسا مشكلا من أكبر موظفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحق للمطارنة والقساوسة في مختلف ولايات الدولة .

لا عجب من تلكم الرحمة ، ولا غرابة في منطق السلطان صلاح الدين أو السلطان محمد الفاتح ، فكلامها قد نقش في قلبه وتشرب ضميره بصيحة الرسول صلى اللّه عليه وسلم التي قالها لأهل مكة ، بعدما فتحها وصاروا في قبضته وهم الذين آذوه وطردوه من بلده وحاربوه وهاهم يسألونه : ما أنت فاعل بنا ؟ فقال قولته الخالدة : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

نعم لقد شرب هؤلاء من هدى النبي الكريم الذي كان ينهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والرهبان والحراث والزمنى ويأمر بالوفاء بالعهد والحفاظ على الذمة وأهلها ، فكيف بعد ذلك لا يكون جهادهم جهاد رحمة ؟!

○ **أمثلة من مدارس الحروب القاسية الغاشمة :**

وإذا بدأنا باليهود لهالنا حجم القسوة والغلظة التي تملأ نفوسهم تجاه غيرهم ، فهم في ظنهم شعب اللّه المختار ، وتعاليمهم تقول : « لن نترك حيا أي شيء يتنفس [سفر التثنية الآية : ١٦٠ - ١٦١] ، « والآن اقتل كل ذكر بين الصغار » [سفر الأعداد] .

وطالما الأمر كذلك فلا غرو أن تأتي إجابات الحاخامات على سائليهم على هذا النحو الذي نجده في إجابة الحاخام الإسرائيلي : شمعون وايزر ، عندما سأله جندي إسرائيلي : هل من الجائز قتل العربي الأعزل من السلاح والنساء والأطفال ؟ وهل نعامل العرب مثل العماليق ، أي نقتلهم حتى نستأصل ذكراهم في الأرض استنادا إلى ما جاء في سفر التثنية ؟ : « ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء » ؟

ورد الحاخام على الجندي برسالة جاء فيها : « سأنقل لك بعض أقوال الحكماء وأفسرها ، وذلك أن الحرب لدى غير اليهود ذات قوانين خاصة مثل قوانين لعب كرة القدم أو السلة ، لكن الحرب عندنا كما يقول حكماؤنا ، لا تعني بالنسبة لنا لعبة بل ضرورة حيوية واستنادا إلى هذه المقاييس فقط ينبغي التفكير حول كيفية القيام بها ،

ولذلك أقول لك أفضل غير اليهودي اقتلوه ، وأفضل الأفاعي هشموا رأسها » وتلك هي قاعدة طهارة السلاح .

وعندما قرأ الجندي رد الحاخام أرسل إليه مرة أخرى يقول : لقد تلقيت رسالتك وفهمتها على النحو التالي : لا يسمح لي في زمن الحرب بقتل كل عربي أو امرأة أصادفها ، وحسب بل من واجبي القيام بذلك ، وعن نفسي فإن من واجبي قتلهم حتى إذا نجمت عن ذلك مشكلات مع القانون العسكري ، وأعتقد أن فكرة طهارة السلاح يجب تعميمها على المعاهد التعليمية ، وأرجو أن تنشط أيها الحاخام في شرح هذه الفكرة كي يعرف جنودنا موقف أسلافهم بوضوح كامل !!

ولربما كانت قاعدة « طهارة السلاح « تلك وراء قيام الجيش الإسرائيلي بدفن آلاف الأسرى المصريين ، وهم أحياء في صحراء سيناء إبان حرب سنة ١٩٦٧م ، ولعلها كانت في قلب وضمير كل من شارك من الصهاينة في المذابح ، وما أكثرها للفلسطينيين بدء بدير ياسين سنة ١٩٤٨م ، ومرورا بمذبحة صبرا وشاتيلا في ١٤ سبتمبر ١٩٨٢م ، وانتهاء بالمذابح اليومية للفلسطينيين التي تجري على قدم وساق لأبطال الانتفاضة الفلسطينية الباسلة رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا ، وهذا المنهج هو ذاته الذي يصوره الشاعر الصهيوني شيرنحوفسكي في قصيدته التي يقول فيها :

أعطني سيفي لأنتصر على أعدائي سوف أقطع كالحاصد وأجتز جذورهم ، سوف اشهر يدي اليمنى القوية وأذبح أعدائي ، وأجعل سيفي يشرب فخورا من دمهم وستستحم خطواتي في دماء الصرعى وتدوس قدماي على شعر رؤوسهم سأقطع من يمين وأحصد من شمال [١] .

وإذا انتقلنا لمدرسة أخرى من مدارس الحرب الغاشمة ؛ فسوف نجد فيها أهوالا قلما نجد لها نظيرا ، فالحروب الصليبية تمثل نموذجا يكشف حقيقة هذه المدرسة ، ولنقلب صفحاتها لنعرف كم كانت هذه الحروب غاشمة وكم كانت قلوبهم قاسية .

ففي القرون الوسطى عندما زحف الصليبيون إلى بيت المقدس وقفوا أمام بلدة معرة النعمان بسوريا وحاصروها حتى اضطر أهلها للاستسلام بعد أن أخذوا من رؤساء الحملة

(١) راجع ترجمة هذه القصيدة في جريدة الأهرام عدد ١٧أغسطس ٢٠٠٢م [ص : ٣] مقال من الذي سرق القمر للأستاذ : عزت السعدني .

عهودا مؤكدة بالمحافظة على النفوس والأموال والأعراض ، فما كادوا يدخلونها حتى ارتكبوا من الفظائع ما تشيب له الولدان ، وقدر بعض المؤرخين الإفرنج الذين كانوا في هذه الحملة عدد الذين قتلوهم بين رجال ونساء وأطفال بمائة ألف .

ثم تابعوا سيرهم إلى بيت المقدس « وهي مدينة القدس الحالية » وشددوا الحصار على أهلها ، فرأى أهلها أنهم مغلوبون لا محالة ، فطلبوا من قائد الحملة الصليبية الأمان على أنفسهم وأموالهم ، فأعطاهم راية يرفعونها على المسجد الأقصى ويلجأون إليه آمنين على كل شيء ، ولكن ما أن دخلوا المدينة المقدسة حتى شنوا حملة القتل والذبح والإبادة على الرجال والنساء والأطفال وعلى كل من دخل المسجد المقدس من الشيوخ والأئمة والعباد الزهاد ، فسالت الدماء حتى ارتفعت إلى ركبة الفارس ، وكانت الشوارع تعج بالجماجم المحطمة ، والأذرع والأرجل المقطعة ، والأجسام الآدمية المشوهة ، ويذكر المؤرخين أن عدد الذين ذبحوا في داخل المسجد الأقصى فقط وصل إلى سبعين ألفا ، ولا ينكر مؤرخو الفرنجة هذه الفظائع وكثير منهم يتحدث عنها فخورين .

وإذا ما انتقلنا إلى أشبيلية بالأندلس في عام ١٠٠٢م ، فسنجد إعلانا كنسيا بطرد المسلمين أعداء اللّه من أشبيلية وما حولها إذ لم يقبلوا المعمودية بشرط ألا يذهبوا إلى طريقا يؤدي إلى بلاد إسلامية ، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل .

ولا ينسى المسلمون في روسيا ما فعله القيصر إيفان الرهيب ، وحرب الإبادة الشاملة التي شنها ضدهم ، فقد فرض عليه أن ينتصروا أو يتركوا أوطانهم .

وإذا ما انتقلنا إلى روسيا الشيوعية فحدث ولا حرج عن أبشع الممارسات ، وأخس الوسائل منذ عهد ستالين ومرورا بالتدخل السوفيتي في أفغانستان ١٩٧٩م وانتهاء بما يحدث اليوم في الشيشان .

وإذ ما انتقلنا إلى إقليم كوسوفا ذي الأغلبية المسلمة الألبانية والذي تعرض لحملة صربية لتغيير طابعه الإسلامي ، لوجدنا أهوالا يشيب لها الولدان ولنتعرف على بعض منها من خلال الشهادات الآتية :

- فقد قال ممثل منظمة الأمن والتعاون « ساندي بليت » : أنهم جمعوا ١٤٠٠ شهادة حول انتهاكات حقوق الإنسان ابتداء من قتل المدنيين ، وعمليات التعذيب واغتصاب النساء وطرد السكان وتدمير الممتلكات والسرقات .

- وكشف « خافير سولانا » الأمين العام لحلف الناتو عن وجود أدلة مثيرة عن قيام هؤلاء الصرب بجريمة التطهير العرقي ، بمعنى أنهم كانوا يقتلون السكان الألبان المسلمين على قدم وساق .
- وقال وزير الخارجية البريطاني « روبين كوك » : إن القوات الصربية كانت تستخدم الألبان المسلمين كدروع بشرية عندما هاجمتهم طائرات حلف الأطلنطي .
- وقال وزير الدفاع الأمريكي « وليم كوهين » في مقابلة مع شبكة « س.بي.سي » الأمريكية إن نحو ١٠٠ ألف رجل في سن القتال من ألبان مسلمي كوسوفا فقدوا في هذا الإقليم ، وربما قتلتهم القوات اليوغسلافية .
- وقال المتحدث باسم حلف الناتو - السابق الإشارة إليه - أن هناك ٧٤١ طفلا يبحثون عن عائلاتهم ، وفي مقابل ذلك هناك ٦٣٨٢ من الأزواج الذين يبحثون عن أولادهم .

وماذا عن أمريكا اليوم :

يحلو للساسة الأمريكيين الحديث عن الحرب العادلة والحرب النظيفة ، والمهمة المقدسة في نشر الحرية والديموقراطية عبر استخدام كافة الوسائل بما فيها الأسلحة الذكية .

وصدق البعض هذه المقولات البراقة إلى أن أيقظهم دوي أم القنابل والصواريخ الذكية توما هوك وكروز وهي تصب على رؤوس المدنيين صبا في أفغانستان والعراق والبقية تأتي .

لكن المتتبع للتيارات الفكرية في أمريكا اليوم واتجاهات المجموعة الحاكمة بواشنطن لن يجد كبير عناء في اكتشاف حقيقة تلك الشعارات ، واكتشاف أننا ليس أمام الحرب النظيفة العادلة ، إنما في الحقيقة أمام الحرب القذرة الظالمة ، ولسنا أمام أسلحة ذكية بل أمام أسلحة غبية مدمرة ، ولسنا أمام التبشير بالحرية ؛ بل أمام التخطيط للهيمنة الأمريكية لأجل غير مسمى .

فالحرب الأمريكية هي اليوم استباقية ووقائية وهي أيضا للحفاظ على المصالح الأمريكية ولو كان ذلك خارج الحدود ، وهي أيضا لفرض نموذج القيم الأمريكية على كل العالم .

ولنستمع للرئيس الأمريكي في خطاب حالة الاتحاد وهو يقول : « إن أمريكا ستكون

القائد في هذه الحرب بالدفاع عن الحرية والعدالة ؛ لأنهما الحق والصواب الثابتان لكل الناس في كل مكان » [1] .

بل إن من هؤلاء الساسة والمثقفين من يروجون لمفاهيم الحرب العادلة كأمر تلتزم به الولايات المتحدة الأمريكية في حروبها ، فقد جاء الآتي في خطاب موجه إلى الأمة الأمريكية والمجتمع الدولي من ستين أكاديميا أمريكيا بارزا على رأسهم « فوكوياما » صاحب كتاب « نهاية التاريخ » وصموئيل هنتجنتون صاحب كتاب « صدام الحضارات » بعنوان « من أجل ماذا نحارب .. خطاب من أمريكا »[2] :

« الحرب العادلة يجب أن تتصف بأمرين :

١- أن تشنها سلطة شرعية .

٢- أن لا تستهدف غير المحاربين إلا في ظروف قد يعد امتدادها لإيذاء بعض المدنيين بغير قصد مسبق مبررا أخلاقيا » ا.هـ .

وإذا ما طبقنا هذه الضوابط على ما يحدث في العراق فلنا أن نتساءل : أين الشرعية في هذه الحرب كي تصير حربا عادلة ؟ أين هي ونحن نرى الرفض الشعبي العالمي والرفض الدولي ممثلا في مجلس أمن الأمم المتحدة لها ؟

ثم أين الالتزام بعدم إيذاء المدنيين والطائرات B2 تفتخر أمريكا بأنها تلقي بين الفينة والفينة قنبلة وزنها ١٠ أطنان على أحياء بغداد السكنية ؟!

وهذا الصنيع غير مستغرب من دولة غاصت أقدامها في الحرب في فيتنام ، ومن قبل قصفت مدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين بالقنابل النووية إبان الحرب العالمية الثانية التي وضعت أوزارها عام ١٩٤٥م مخلفة وراءها ٥٥مليون نسمة من الضحايا كان بينهم ٣٠ مليونا من المدنيين وهو رقم فاق عدد ضحايا الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م الذي بلغ ٣٧ مليونا من القتلى والجرحى والمفقودين[3].

---

(١) راجع جريدة الأهرام عدد ٢٠٠٢/٩/٢١م [ص : ٦] .

(٢) نشر الخطاب على الإنترنت في ٢٠٠٢/٢/١٢م عن معهد القيم الأمريكية ونشر في جريدة الأهرام في ٢٠٠٢/٣/٢١م [ص : ١٣] مقال : أوراق نقدية للأستاذ السيد ياسين .

(٣) راجع هذه الأرقام في مقال الحرب العالمية الرابعة للدكتور عبد المنعم سعيد المنشور في الأهرام ٢٠٠٢/١٠/٢٨ [ص : ٢٨] .

تلك سطور من صفحات الحرب القاسية المخزية استعرضناها لعلها تكشف عن الفارق الشاسع بين مفهوم الجهاد الإسلامي الرحيم ومفهوم الجهاد عند غيره من الأمم عندما يوضع كل منهما على محك الممارسة ، فكما يقال :

فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتميز الأشياء

عود على بدء :

وهكذا تتبلور أمامنا الحقيقة الغائبة للجهاد من خلال الاستعراض السابق كحقيقة مركبة من أبعاد متعددة متكاملة لا يصح اختزالها في أحد أبعادها.

فالحقيقة الغائبة للجهاد تقدم لنا جهادا شاملا على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدعوية وبالطبع العسكرية .

وهي أيضا تعني أن الجهاد ما هو إلا وسيلة من الوسائل العديدة التي تبناها المنهج الإسلامي لبلوغ غاياته النبيلة .

وهي تبين كذلك ارتباط الجهاد وجودا وعدما بالمصالح المأمولة ، والقدرات المملوكة في ظل الالتزام بالأحكام الشرعية المنظمة له ، والمقاصد الإسلامية الكلية الموجهة له .

تقدم لنا الحقيقة الغائبة للجهاد مفهوما للجهاد يمزج بين العدل والرحمة والسماحة ليلتزم به كل من انتصر على النفس قبل دحر الخصم ، واختار طريق التضحية والفداء لمنازلة الأعداء .

تلك هي الحقيقة الجهادية الغائبة .. والتي نتمنى أن تصير الآن جلية واضحة .

○ ○ ○

المطلب الثاني :

الجهاد فريضة من فرائض الإسلام

لا يشك مسلم أن الجهاد في سبيل اللَّه من أفضل الأعمال ، ومن أعظم القرابات ، وكيف يشك في ذلك وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] وهل يماري أحد في عظم فضل الجهاد في سبيل اللَّه وقد جاء رجل إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد . قال : لا أجده قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا وتفتر قدماك وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك » [1] .

نعم لا يشك مسلم – والحال هكذا – في أن الجهاد من أعظم الأعمال ، وعندما نقول من أعظم فإننا نقصد ذلك ونعتمده لنؤكد على أن الجهاد فريضة من فرائض الإسلام العديدة .

وأنه عمل صالح عظيم من أعمال أخرى صالحة مأمور بها ، والذي يدفعنا لذلك التأكيد حرصنا على دفع الوهم الذي قد يحدث للبعض بأن الجهاد هو الإسلام ، والإسلام هو الجهاد .

وقد يقول قائل : إن هؤلاء لا ينكرون شرائع الإسلام الأخرى بل يقرون بها ويحرصون عليها .

فأقول : هذا صحيح نظريا ، فهم لا يجحدون شرائع الإسلام الأخرى ولكنهم عمليا لا يرون في الإسلام إلا الجهاد وينعكس ذلك على حركتهم وأهدافهم وأولوياتهم بل ونجد جماعات عديدة تتأسس وفقا لهذا الفهم ، فبرنامجها جهادي ومناهجها العلمية مصبوغة بالصبغة الجهادية وباختصار يتم عسكرة الفرد والجماعة في كل شيء ، وبقدر الاهتمام والعكوف على تربية الأفراد تربية جهادية تجد الإغفال لفروض الإسلام الأخرى ، أو على أحسن الأحوال الاهتمام العابر بها .

فالعلم الشرعي المطلوب عندهم هو العلم بأحكام القتال ، وما وراء ذلك فليس مما يحتاج إليه .

---

(١) أخرجه البخاري [٢٧٨٥] ، والنسائي [٣١٢٨] عن أبي هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

وترى بين هؤلاء من يحدثك بإسهاب عن أحكام الغنائم وتوزيعها وهو في غفلة عن تعلم أحكام العبادات الواجبة أو المعاملات اللازمة .

والدعوة عندهم ليست لدين اللَّه بشرائعه العديدة إنما تنحصر في الدعوة للالتحاق بركب المجاهدين والتدريب معهم عسكريا وأمنيا ، أما دعوة العاصي ليقلع عن عصيانه ، وتارك الصلاة ليلزمها ، وقاطع الرحم ليصلها فهذه مسائل ليست في أولوياتهم - ولن تكون - بل قد يكون من يقوم بها موضع تهكم منهم ، وربما ينظر إليه بعين الازدراء والتحقير وقد تلصق به تهم شنيعة من قبيل الجبن وعدم الوعي والتخاذل .

وإذا كان هذا نصيب الدعوة فمن الطبيعي ألا يكون هناك أدنى نصيب من الاهتمام بالعمل الاجتماعي الذي يوجه لحل المشاكل الحياتية لعموم الناس وإعانتهم على مشاق الحياة المختلفة بتقديم الخدمات الصحية أو التعليمية أو غيرهما ، فمثل هذا يعدونه مضيعة للوقت والجهد وبلاهة من القائمين عليه .

○ **مناقشة استدلالاتهم :**

أصحاب فكرة اختزال الإسلام في الجهاد عمليا يتحصنون بعدة أدلة لإثبات فكرتهم تلك وبالإضافة لرؤية معينة للواقع المعاش .

أما الأدلة الشرعية التي يستندون إليها ويحسبون أنها تسعفهم :

فأشهرها قول المولى عز وجل : ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التوبة] وأيضا قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم : عندما سئل : أي العمل أفضل ؟ فقال : إيمان باللَّه ورسوله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل اللَّه . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور »[1] .

ومن تلك الأدلة كذلك قول النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط اللَّه عليكم ذلا لا ينزعه حتى تراجعوا إلى دينكم »[2] .

---

(١) رواه البخاري [٢٦] ، ومسلم [١٣٥/٨٣] عن أبي هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) رواه أبو داود [٣٤٦٢] وقال الألباني : صحيح ، وأحمد [٢٨/٢] ، وقال الشيخ شاكر : صحيح عن عمر رضى اللَّه تعالى عنه .

فهذه اشهر الأدلة التي يستندون إليها وما لم أذكر منها لا يخرج عن دلالة ما ذكرته آنفا . ونناقش هذه الأدلة من عدة أوجه :

الوجه الأول : إن هذه الأدلة تقرر أن الجهاد لا يخرج عن كونه من أفضل القربات أو الطاعات ، فالآية تبين أفضلية الجهاد على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، والحديث أثبت أن الجهاد من أفضل الأعمال بعد الإيمان باللّه ، ولكن لا ينفي ذلك أن هناك أعمال لها أفضلية مأمور بها شرعا كالحج المبرور وبر الوالدين ... إلخ . والحديث الثاني إلى آخره لم يجعل ترك الجهاد فحسب سببا للذل والتسليط على المؤمنين إنما جاء معه البيع بالعينة .

وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح إلغاء الأعمال المأمور بها أو عدم الاهتمام بترسيخها عملا ودعوة تحت دعوة أفضلية الجهاد عليها .

الوجه الثاني : إن العلماء جعلوا الجهاد يأتي في مرتبة تالية للفرائض وفي ذلك يقول ابن قدامة المقدسي : قال أبو عبد اللّه لا أعلم شيئا من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد [1] ؟!

ويستدل العلماء على ذلك برواية الإمام البخاري في حديث ابن مسعود عندما سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم : يا رسول اللّه ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الصلاة على ميقاتها » قلت : ثم أي ؟ قال : ثم « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل اللّه فسكت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولو استزدته لزادني » [2] .

ويقول ابن عابدين الحنفي : « ولا تردد في أن المواظبة على أداء فرائض الصلاة في أوقاتها أفضل من الجهاد لأنها فرض عين وتكرر ، ولأن الجهاد ليس إلا للإيمان وإقامة الصلاة فكان حسنا لغيره والصلاة حسنة لعينها وهي المقصودة منه ..

قلت : وقد نص على ذلك الإمام السرخسي في شرح السير الكبير حيث قال : عن أبي قتادة : « أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قام يخطب الناس فحمد اللّه وأثنى

(١) المغنى على مختصر الخرقي ، للعلامة أبي محمد عبد اللّه بن أحمد بن قدامة ، المتوفى في سنة ٦٢٠هـ ، ومختصر الخرقي للعلامة أبي القاسم عمر بن حسين الخررقي الحنبلي ، المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، دار الكتاب العربي ، دمشق .

(٢) رواه البخاري [٢٧٨٢] .

عليه ثم ذكر الجهاد فلم يدع شيئا أفضل من الجهاد إلا الفرائض »[1] . يريد به الفرائض التي ثبتت فريضتها عينا وهي الأركان الخمسة لأن فرض العين آكد من فرض الكفاية والثواب بحسب آكدية الفريضة فلهذا استثنى الفرائض [2] . ا.هـ .

الوجه الثالث : إن اختزال الإسلام في الجهاد يعني استبعاد اختيارات نبوية مؤيدة بالوحي كالصلح الذي عقده رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مع قريش عام الحديبية وما ذكره القرآن الكريم في هذا الشأن : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال : ٦١] . يقول ابن كثير رحمه اللَّه في تفسير هذه الآية : مرجحا أن الآية غير منسوخة : « فأما إن كان العدو كثيفا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، وكما فعل النبي صلى اللَّه عليه وسلم يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص واللَّه أعلم » [3] ا.هـ .

وإذا كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم قد اختار تعبيرا بليغا يبين موقع الجهاد بالنسبة لأركان الإسلام وشرائعه فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » [4] .

فالبناء له قواعد وأركان وذروة سنام ، ولا توجد القمة إذا ما أهملت القواعد والأركان ؛ ولذلك فإن التربية على كل شرائع الإسلام وترسيخها في النفوس هي المقدمة الصحيحة لاستقامة البناء والوصول لذروة سنامه .

---

(١) روى البخاري [١٨٦١] ، وأحمد في المسند [٦ / ٧٩] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها قالت : قلت يا رسول اللَّه ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ فقال : لكن أحسن الجهاد واجمله الحج المبرور ، قالت عائشة : فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

(٢) حاشية رد المحتار على الدر المختار ، للإمام محمد أمين الشهير بابن عابدين المتوفى سنة ١٢٥٢هـ ، والدر المختار للإمام الحصكفي ، دار الفكر الطبعة الثانية [٤ / ١٢٠] .

(٣) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ، المكتبة العلمية لبنان [٢ / ٢٦٨] .

(٤) رواه الترمذي [٢٦١٦] وقال الألباني : صحيح ، وأحمد في المسند [٥ / ٢٣١] وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره .

قد يقول قائل : لماذا تريد أن تحط من منزلة الجهاد ؟:! ألا ترى الواقع الذي يعيشه المسلمون ؟ فالشرع غائب وهويتهم تتعرض للمحق ، ويتعرض دعاته إلى شتى أنواع الضغط والتنكيل ، فهل هناك سبيل سوى الجهاد للخروج من هذه الغمة ؟

وأمام هذا التساؤل أود أن أؤكد على أن ما أريده ليس حطا من منزلة الجهاد أو تهوينا من قدره في نفوس المؤمنين ؛ فمعاذ اللّه أن يفعل مسلم ذلك . إنما المراد أن نضع الجهاد في موقعه الذي أراده اللّه له . **مرادنا القول** بأن الجهاد في سبيل اللّه الذي هو من أعظم القربات قد يكون واجبا ، وقد يكون محرما على حسب توفر أسبابه وشروطه وعدم وجود المانع منه ، وعلى كل حال فهو فريضة ضمن فرائض ، وقربة ضمن قربات ، وقد يكون الجهاد في زمان خيرا من غيره من القربات ، وقد يكون العكس ، وقد يكون الجهاد خيرا لواقع معين متى توفرت أسبابه وشروطه وقد يكون مأساة في واقع آخر إذا ما أقدم عليه البعض دون مراعاة لأحكامه .

مرتبة الجهاد بين فضائل الإسلام :

وفصل المقال بيننا في تحديد أفضلية العبادة أو القربة التي يجب أن يلزمها المسلم دون غيرها سنجعله للإمام الجليل ابن القيم ، فقد عقد فصلا جليل القدر ، عظيم النفع في كتابة مدارج السالكين خصصه للبحث عن الميزان الصحيح لتحديد أفضلية العبادة والقربة التي يجب على المسلم إيتانها قبل غيرها ، وبعد أن استقرأ مذاهب الناس في هذا الصدد حدد الميزان الصحيح بقوله : « فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة اللّه في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه »[1] ا.هـ .

وكي نعرف كيف وصل الإمام ابن القيم إلى هذا الميزان جدير بنا أن نثبت مختصرا لكلامه لما فيه من المعاني العظيمة الجليلة .

يقول صاحب تهذيب مدارج السالكين : [2] « ثم أهل مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق ، فهم في ذلك أربعة أصناف :

(١) تهذيب مدارك السالكين لعبد المنعم صالح العلي العزي المكتبة القيمة [ص : ٧٢] .
(٢) تهذيب مدارج السالكين [ص : ٧٠ - ٧٣] .

- **الصنف الأول** : عندهم انفع العبادات وأفضلها ، أشقها على النفوس وأصعبها قالوا : لأنه ابعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد . قالوا والأجر على قدر المشقة . ورووا حديثا لا أصل له « أفضل الأعمال أحمزها »[1] أي : أصعبها وأشقها وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس . قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .
- **الصنف الثاني** : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، وأطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها . **ثم هؤلاء قسمان** : فعوامهم ظنوا أن هذه غاية فشمروا إليه وعملوا عليه ودعوا الناس إليه وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة . فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها . وخواصهم رأوا هذا مقصورا لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على اللّه وجمع الهمة عليه وتفريغ القلب لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته ودوام ذكره بالقلب واللسان والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب .
- **الصنف الثالث** : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد ، فرأوه أنفع من ذي النفع القاصر ، فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل ، فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى اللّه عليه وسلم : « الخلق كلهم عيال اللّه وأحبهم إليه أنفعهم لعياله »[2]. رواه أبو يعلى . واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النفاع متعد إلى الغير وأين أحدهما من الآخر ؟

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء [٤٥٩] بلفظ : « أفضل العبادات أحمزها » وقال في الدرر : تبعا للزركشي لا يعرف ، وقال المزي : هو من غرائب الأحاديث ولم يرو في شيء من الكتب الستة ، وقال القاري في الموضوعات الكبرى : معناه صحيح لما في الصحيحين عن عائشة : « الأجر على قدر التعب » انتهى ، وفي النهاية لابن كثير : بلفظ : « سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أي الأعمال أفضل ؟ قال : أحمزها » . وقوله : أحمزها : أقواها وأشدها .

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده [٦ / ٦٦ / ٢٣١٥] عن أنس ين مالك رضي اللّه تعالى عنه .

قالوا : لهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .

قالوا : وقد قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضى اللَّه تعالى عنه : « لأن يهدي اللَّه بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم »[1] وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى واحتجوا بقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء »[2] .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله وصاحب النفع لا ينقطع عمله مادام نفعه الذي نسب إليه[3] . واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومعادهم ، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب ، ولهذا أنكر النبي صلى اللَّه عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس[4] .

○ **الصنف الرابع** : قالوا إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة عدم الأمن .

---

(١) رواه البخاري [٣٠٠٩] ، ومسلم [٢٤٠٦ / ٣٤] ، وأبو داود [٣٦٦١] عن سهيل بن سعد رضي اللَّه تعالى عنه .

(٢) رواه مسلم [٢٦٧٤ / ١٦] ، وأبو داود [٤٦٠٩] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه .

(٣) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم [١٦٣١ / ١٤] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

(٤) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري [٥٠٦٣] ، ومسلم [١٤٠١ / ٥] عن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى اللَّه عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى اللَّه عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى اللَّه عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما واللَّه إني لأخشاكم للَّه وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا : القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى المسجد وإن بعد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال والاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه وكأن اللّه تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف على ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقراءهم القرآن عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك ، المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه [1].

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري [١٢٤٠] ، ومسلم [٢١٦٢ / ٤] عن أبي هريرة رضى اللّه تعالى عنه « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، واجابة الدعوة وتشميت العاطس .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه [1] .

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة اللَّه في ذلك الوقت والحال والاشتغال لواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد فمتى خرج احدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته ، فهو يعبد اللَّه على وجه واحد . وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل لا يزال متنقلا في منازل العبودية كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره .

فإن رأيت العلماء رأيته معهم ، وإن رأيت العباد رأيته معهم ، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم ، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم .

فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ولم تقيده القيود ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذته وراحتها من العبادات بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه .

فهذا هو المتحقق بـ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حقا ، القائم بها صدقا ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بأمر اللَّه به في كل وقت بوقته ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم . حر مجرد . دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الأمر حيث توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة لا يسقط ورقها

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه الترمذي [٢٥٠٧] عن شيخ من أصحاب محمد صلى اللَّه عليه وسلم ، وابن ماجه [٤٠٣٢] عن ابن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما قال : « قال رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم : المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » وقال الألباني : صحيح .

وكلها منفعة حتى شوكها ، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر اللَّه ، والغضب إذا انتهكت محارم اللَّه ، وهو لله وباللَّه ومع اللَّه .

قد صحب اللَّه بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس ، بل إذا كان مع اللَّه عزل الخلائق عن اللَّه وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها فواها له ، أما أغربه بين الناس ! وما أشد وحشته منهم وما أعظم أنسه باللَّه وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ! واللَّه المستعان وعليه التكلان أ.هـ

نعم أيها الإمام العظيم .. الإسلام لم يأت بلزوم أشق العبادات والقربات لمجرد مشقتها ، ولم يأت بلزوم الانقطاع عن الدنيا والعزلة عنها ، ولم يأت أيضا بلزوم ما نفعه متعد لما فيه من فضل فحسب ، لكن الإسلام أمر بتلمس مواقع رضا اللَّه في كل وقت وفي كل حال ، والأوقات تتباين الأمور فيها والأحوال تختلف ، الواجب فيها ما يحقق مرضاة اللَّه أكثر ، سواء كان شاقا أو يسيرا ، أو كان فيه عزلة عن الناس أو خلطة بهم ، أو كان نفعه خاصا أم متعد للغير .

وهكذا يكون لفرائض الإسلام وقرباته المتعددة المتنوعة وقت أليق بها ، وزمان تقدم فيه عن غيرها ، سواء كانت تلك القربة ذكرا لله ، أو تلاوة للقرآن ، أو دعوة لعاصي ، أو تعليما لجاهل ، أو جهادا لمشرك ، أو زيارة لمريض .

وهذا الفهم الدقيق الذي يقدمه الإمام ابن القيم يمثل الاستجابة الصحيحة لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

ورحم اللَّه ابن كثير عندما يقول : « يقول اللَّه تعالى آمرا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله صلى اللَّه عليه وسلم ، أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره ما استطاعوا من ذلك »[1] ا.هـ .

○ ○ ○

(١) تفسير القرآن الكريم [١ / ٢٢٩] .

المطلب الثالث :

الجهاد في سبيل اللَّه وسيلة لا غاية

قد يرى كثيرون أن اعتبار الجهاد وسيلة لا غاية أمر بديهي لا يحتاج لإطالة في الاستدلال ، فهو قضية بينة واضحة فضلا عن أنه لا يمارى فيه أحد منتسب للشريعة .

وإذا كنا نشارك هؤلاء في وضوح هذه القضية ، ولكن ربما لا يغيب عنهم أننا الآن في زمان نحتاج فيه لإيضاح الواضحات .

فلقد رأينا وسمعنا من ينتدب نفسه للجهاد لا لشيء سوى أن تظل عجلة الجهاد دوارة ، ورأينا من يفك الارتباط بين الجهاد كوسيلة وغايته المرجوة ، فأصبح الجهاد عندهم من أجل الجهاد ؛ وحتى إن سلم البعض منهم بأن الجهاد وسيلة فهم قد يخطئون في تحديد غايته أو يقصرونها على غاية فردية تتمحور حول نيل الشهادة ولو على حساب الأمة المسلمة الجماعية .

وقبل أن نلتفت لمناقشة من يخطئ في تحديد الغاية من الجهاد أو يفك الارتباط بين الجهاد كوسيلة والغاية منه ، فلنقرر أولا أن الجهاد في سبيل اللَّه يندرج في عداد الطرق والوسائل ، لا بين الغايات والمقاصد .

اندراج الجهاد في عداد الوسائل :

الجهاد في سبيل اللَّه غاية أم وسيلة ؟

كان يكفي للإجابة على هذا التساؤل ما نلحظه من تقييد الجهاد في جل الآيات والأحاديث التي تحدثت عنه بأن يكون في سبيل اللَّه ؛ وهو ما يؤكد اندراج الجهاد في باب الطرق والوسائل لا الغايات والمقاصد .

ولنتأمل بعضا من الآيات والأحاديث المبينة لهذا المعنى :

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

وقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إن في الجنة مائة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيل اللَّه ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » (١) .

وقال صلى اللَّه عليه وسلم : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية اللَّه ، وعين باتت تحرس في سبيل اللَّه »(٢) .

وقال صلى اللَّه عليه وسلم - مبينا اندراج الجهاد في سبيل اللَّه في باب الطرق والوسائل لا الغايات والمقاصد - : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه »(٣) .

كل هذه النصوص تقرر بوضوح أن الجهاد وسيلة لإعلاء المنهج الرباني بنشره والدفاع عنه ، ولننظر إلى ما يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد : « وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله ، وان تكون كلمة اللَّه هي العليا ... » (٤) ا.هـ .

ويزيد الأمر وضوحا سلطان العلماء العز بن عبد السلام : « وجعل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم الجهاد تلو الإيمان لأنه ليس بشريف في نفسه إنما وجب وجوب الوسائل » (٥) ا.هـ .

---

(١) رواه البخاري [٢٧٩٠] عن أبي هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) رواه الترمذي [١٦٣٩] عن ابن عباس رضى اللَّه تعالى عنهما ، وقال الألباني : صحيح .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت [ص : ١٠] .

(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، للإمام العز بن عبد السلام ، دار الجيل بيروت [٥٤/١] .

ويقول في موضع آخر : « فالتأهب إلى الجهاد بالسفر إليه وإعداد الكراع والسلاح والخيل وسيلة إلى الجهاد الذي هو وسيلة إلى إعزاز الدين وغير ذلك من مقاصد الجهاد ، فالمقصود ما شرع الجهاد لأجله ، والجهاد وسيلة إليه ، وأسباب الجهاد كلها وسائل إلى الجهاد الذي هو وسيلة إلى مقاصده »[1] ا.هـ .

وقال أيضا : « فإن قيل : الجهاد إفساد وتفويت النفس والأطراف والأموال وهو مع ذلك قربة إلى اللّه ؛ قلنا : لا يتقرب من جهة كونه إفسادا وإنما يتقرب من جهة كونه وسيلة إلى درء المفاسد وجلب الصلاح »[2] ا.هـ .

وبالإضافة للمعنى السابق ، فإن القول باندراج الجهاد ضمن الوسائل أمر تقرره كليات الشريعة وأحكامها الجزئية بوضوح وجلاء .

ولنقف لنستعرض ذلك بشيء من التفصيل :

○ **أولا : النظر في مقاصد الشريعة يؤكد أن الجهاد وسيلة إليها :**

عندما نتأمل مقاصد الشريعة التي جاءت التكاليف الشرعية للحفاظ عليها سوف نوقن أن الجهاد ما هو إلا وسيلة من وسائل تحقيق هذه المقاصد .

ولنتعرف على تلك المقاصد من الإمام الشاطبي حيث يقرر : تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق ، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تكون ضرورية ، **والثاني** : أن تكون حاجية ، **والثالث** : أن تكون تحسينية ، فأما الضرورية فمعناها إنها لابد منها في قيام الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وتهارج وفوت حياة ، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين (...) ومجموع الضروريات خمسة وهي : حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل (...) . أما الحاجيات فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ، ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج ، والمشقة اللاحقة عن فوت المطلوب ، فإذا لم تراع دخل المكلفين على الجملة الحرج والمشقة ، ولكن لا يبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة (...) وأما التحسينات فمعناها :

(١) المصدر السابق [١ / ١٢٥] .

(٢) المصدر السابق [١ / ١٣٢] .

الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات (...) فهذه الأمور راجعة إلى محاسن زائدة على أهل المصالح الضرورية والحاجية إذ ليس فقدانها بمخل بأمر ضروري ولا حاجي وإنما جرت مجرى التحسين والتزيين »[1] ا.هـ .

والسؤال الآن : هل الجهاد يعد من جملة المقاصد التي أشار إليها الإمام الشاطبي سواء كانت ضرورية أو حاجية أو تكميلية ؟

لا شك في أن الجهاد يندرج في عداد الوسائل لتحقيق هذه المقاصد ، وهذا أمر لا يحتاج لمزيد توضيح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

○ ثانيا : للجهاد غايات حددتها الشريعة

ومن تأمل الآيات والأحاديث التي تتناول فريضة الجهاد بالبيان والتفصيل سيجد في كثير منها تحديدا للهدف من الجهاد بالبيان والتفصيل سيجد في كثير منها تحديدا للهدف من الجهاد وتنصيصا على أحد أغراضه .

وهذا يعني أن الجهاد وسيلة إلى تحقيق الغرض ، يبدأ الجهاد عندما يراد الوصول إلى هذا الغرض ، وينتهي بالوصول إليه ، ويسقط عندما لا يستطاع ذلك ، وقد يحرم إذ لم يمكن تحقيق الغرض منه أو عند حدوث مفاسد عدة تربو على المصلحة المرجوة منه .

ولنتأمل في أغراض الجهاد وأهدافه كما حددتها النصوص الشرعية ؛ لنعلم أنه مرهون ببقاء الغرض منه لأنه وسيلة إليه :

١ - دفع الظلم ورد البغي والحفاظ على وحدة الأمة :

قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] .

(١) الموافقات في أصول الشريعة ، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشهير بالشاطبي - دار الفكر - المجلد الأول [٢/٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩]

٢ - رد العدوان والدفاع عن النفس والأوطان :

قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

٣ - إعلاء منهج اللّه ومحق الفتنة وإقامة الدين :

قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

٤ - استنقاذ المستضعفين ونصر المؤمنين :

قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

٥ - نشر التوحيد وفتح الطرق أمام دعوته ، وتهيئة النفوس لقبول الإيمان وتحقيق مصالح أهل الإسلام :

قال تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ .. ﴾ [الأنفال : ٣٩] أي : شرك .

وقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « وإذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين واخبرهم بأنهم يكونوا كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم اللّه الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن باللَّه تعالى وقاتلهم »[1] .

وقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رسول اللَّه ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللَّه » [2] .

وقال صلى اللَّه عليه وسلم : سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة » [3] .

و يظهر من استعراض النصوص السابقة أن للجهاد أغراضا متعددة وغايات متنوعة ، فهل هناك شك بعد ذلك في كون الجهاد وسيلة لا غاية ؟

○ **ثالثا : السيرة العملية للرسول صلى اللَّه عليه وسلم تنبئ بأن الجهاد وسيلة :**

من تأمل هدي الرسول صلى اللَّه عليه وسلم في الجهاد سيجده تارة يقاتل ، وأخرى يصالح ، وثالثة يرجع بجيشه قافلا عندما يتعذر المضي في الجهاد ، وهل ننسى عودته صلى اللَّه عليه وسلم من حصار حصن الطائف في السنة الثامنة من الهجرة بعد حصاره له أربعين يوما .

يقول الإمام ابن القيم : « ولم يؤذن لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في فتح الطائف واستشار رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم نوفل بن معاوية الديلي فقال : ما ترى ؟ فقال : ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك . فأمر رسول اللَّه صلى اللَّه

(١) رواه مسلم [٣/١٧٣١] عن بريدة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) رواه البخاري [١٤٠٠] ، ومسلم [٣٢/٢٠] ، والنسائي [٢٤٤٣] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٣) رواه البخاري [٣٦١١] ، ومسلم [١٥٤/١٠٦٦] ، وأبو داود [٤٧٦٧] ، والنسائي [٤١٠٢] عن علي رضى اللَّه تعالى عنه .

عليه وسلم عمر بن الخطاب فأذن بالناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: « فاغدوا على القتال » فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إنا قافلون غدا إن شاء اللَّه » فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يضحك »[1] ا.هـ .

ويستنبط الإمام ابن قدامة المقدسي رحمه اللَّه من هذه القصة معنى دقيقا فيقول : أن يرى المصلحة في الانصراف عنه إما لضرر في الإقامة أو لليأس منه وإما لمصلحة ينتهزها تفوت بإقامته فينصرف عنه لما روى لأن النبي صلى اللَّه عليه وسلم حاصر أهل الطائف فلم ينل منهم شيئا فقال : إنا قافلون إن شاء اللَّه غدا فقال المسلمون : أنرجع ولم نفتحه ؟ فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « اغدوا على القتال » فغدوا عليه فأصابهم الجراح فقال لهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إنا قافلون غدا إن شاء اللَّه فأعجبهم ، فضحك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم »[2].

يقول الإمام ابن القيم رحمه اللَّه : إن الإمام إذا حاصر حصنا ولم يفتح عليه ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه ، لم يلزمه مصابرته ، وجاز له ترك مصابرته ، وإنما تلتزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها »[3] ا.هـ .

وهذا الصنيع منه صلى اللَّه عليه وسلم يشير إلى أن الشروع والاستمرار في الجهاد مرتبط بتحقيق الغاية منه ؛ لأنه وسيلة لمقصود متى تعذر تحقيقه لم يستمر فيه .

أهمية تقرير أن الجهاد وسيلة لا غاية :

بعد هذا الاستعراض التفصيلي نحسب أنه لا يشك أحد في كون الجهاد وسيلة لا غاية ، لكن قد يقفز سؤال إلى الأذهان : ما أهمية هذا التحديد ؟ ولماذا هذا الحرص على إثبات أن الجهاد وسيلة لا غاية ؟

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم [٢ / ١٩٧] .

(٢) المغنى [١٠ / ٥٤٥] والحديث رواه البخاري [٤٣٢٥] عن عبد اللَّه بن عمر رضى اللَّه تعالى عنهما ، ومسلم [١٧٧٨ / ٨٢] عن عبد اللَّه بن عمرو رضى اللَّه تعالى عنهما .

(٣) زاد المعاد لابن القيم [٢ / ١٩٩] .

هذا السؤال يعطينا الفرصة لتسليط الضوء على أهمية التمييز بين ما يعد من المقاصد وما يندرج في الوسائل ويتبين ذلك عبر الآتي :

١- إن المقاصد والغايات لا يتصور فيها التحريم أو الإلغاء بينما يجري ذلك على الوسائل ، وبيان ذلك أن إقامة الدين أحد مقاصد الشريعة ولا يتصور أن يحرم أو يكره مثل هذا المقصد ، بينما الجهاد كوسيلة من وسائل تحقيق هذا المقصد قد يحرم إنفاذه إذا لم تتوفر مقتضياته أو شروطه ، أو وجد المانع منه فالمقاصد مطلوبة على كل حال ، والوسائل قد تمنع رغم بقاء تلك المقاصد .

٢- إن تحقق المقصد يؤدي إلى سقوط الوسيلة ، فمتى تحققت الغاية المطلوبة انتهى اللجوء للوسيلة المستخدمة ، وبيان ذلك أنه متى أقيم الدين فلا يصح اللجوء لوسيلة الجهاد لتحقيق تلك الغاية والتي بمقتضاها استبيحت الأنفس والأموال ، فإسلام الكفار الذين يحاربهم المسلمون ينهي القتال ولا يصح بعد إسلامهم استهداف أرواحهم أو أموالهم بسوء .

٣- إن الغاية الواحدة قد تتعدد الوسائل التي تفضي إليها ، وكلما كانت الوسيلة أقدر على تحقيق الغاية المطلوبة تقدمت على غيرها من الوسائل .

وينقل الإمام السيوطي [١] ترجيح الشيخ عز الدين لما ذهب إليه الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين « أن أفضل الطاعات على قدر المصالح الناشئة عنها » .

وكما يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام : « وكلما قويت الوسيلة في أداء المصلحة كان أجرها أعظم من أجر ما قصر عنها »[٢] ا.هـ .

٤- إنه لا يجوز الاستمرار في الوسيلة التي لا تفضي إلى الغاية أو ينجم عنها إضرار بمقاصد أخرى للشريعة أهم وأولى ، وكذلك عندما يترتب عليها مفاسد أكبر من المصالح التي يرتجى تحقيقها عبر هذه الوسيلة .

يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام : « الواجبات والمندوبات ضربان : أحدهما : مقاصد ، والثاني : وسائل ، وكذلك المكروهات والمحرمات ضربان : أحدهما :

(١) الأشباه والنظائر للإمام السيوطي « جلال الدين » دار السلام للطباعة والنشر [٣٢٤/١] .
(٢) قواعد الأحكام [١ / ١٢٣] .

مقاصد ، والثاني : وسائل ، وللوسائل أحكام المقاصد ، فالوسيلة إلى أفضل المقاصد هي أفضل الوسائل ، والوسيلة إلى أرذل المقاصد هي أرذل الوسائل . ثم ترتب الوسائل بترتب المصالح والمفاسد ، فمن وفقه اللَّه للوقوف على ترتيب المصالح عرف أفضلها من مفضولها ومقدمها من مؤخرها ، وقد يختلف العلماء في بعض رتب المصالح فيختلفون في تقديمها عند تعذر الجمع وكذلك من وفقه اللَّه لمعرفة رتب المفاسد فإنه يدرأ أعظمها بأخفها عند تزاحمها ، وقد يختلف العلماء في بعض رتب المفاسد فيختلفون فيما يدرأ منها عند تعذر دفع جميعها »[1] ا.هـ .

فالبحث عن أفضل الو سائل للوصول للغاية أمر هام وحيوي ومقياسه مقدار المصالح المترتبة على سلوكها .

وتطبيق القواعد السابقة على الجهاد في سبيل اللَّه كوسيلة يقتضي أن تتأكد عند تقييمه كوسيلة من إفضائه إلى الغاية منه ، وأنه أفضل الوسائل المتاحة للوصول إليها ، وأنه لا يترتب عليه مفاسد أكبر من المصالح المرجوة منه ، وأنه لا يترتب على مزاولته إضرار بمقاصد أخرى للشريعة هي أولى من الغاية المستهدفة منه ، وهذا كله بين أهمية هذا التمييز الذي انشغلنا بتقريره عبر الصفحات السابقة . ومن المناسب أن نذكر هنا ما قاله الإمام القرافي في هذا الخصوص فإنه نفيس :

يقول الإمام القرافي : أعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها وتكره وتندب وتباح ، فإن الذريعة هي الوسيلة ، فكما أن وسيلة المحرم محرمة ، فوسيلة الواجب واجبة كالسعي للجمعة والحج ، وموارد الأحكام على قسمين :

مقاصد : وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها ، **ووسائل** : وهي الطرق المفضية إليها ، وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم وتحليل غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها والوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الو سائل وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل وإلى ما يتوسط متوسطة ، ومما يدل على حسن الوسائل الحسنة قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ﴾ [التوبة : ١٢٠] الآية ، فأثابهم اللَّه على الظمأ

(١) قواعد الأحكام [١ / ٥٤] .

والنصب وإن لم يكونا من فعلهم بسبب أنهما حصلا لهما بسبب التوسل إلى الجهاد الذي هو وسيلة لإعزاز الدين وصون المسلمين فيكون الاستعداد وسيلة الوسيلة » [1] ا.هـ .

○ **خطأ من فك بين الجهاد وغايته :**

ولنلتفت الآن إلى من يخطئ في تحديد الغاية من الجهاد أو يفك الارتباط بين الغاية والوسيلة .

وهؤلاء قد يتفقون معنا على أن الجهاد وسيلة لا غاية ، لكنهم قد يقصرون الجهاد على غاية شخصية فردية - هي طلب الشهادة - وبدلا من أن يستدعوا الوسيلة عندما يراد الوصول بها إلى الغاية تراهم يستمرون على الجهاد ولو لم يكن هناك أمل في أي غاية ، ومن ثم يصير الجهاد مرادا وواقعا في كل الأحوال والأوقات دون أي ارتباط بالغايات أو إمكانية تحقيقها .

فنحن هنا - والحال كذلك - إزاء نمطين متقاربين هما :

○ نمط من اخطأ في تحديد الغاية من جهاده فقصرها على طلب الشهادة في سبيل اللَّه وقدمها على غيرها من الغايات .

○ ونمط من يفك الارتباط بين سلوك الوسيلة وإمكانية بلوغ الغاية وتحقيق النتيجة عبرها .

ولنناقش ما يطرحه أصحاب كل منطق منهما على حده :

أولا : مناقشة من حصر الغاية في طلب الشهادة وقدمها على غيرها من الغايات :

وأصحاب هذا المنطق يرون أن خير ما يفعله المسلم هو السعي لنيل الشهادة لما فيها من أجر عظيم وثواب كبير وهم يغضون الطرف عن أي أمور أخرى فالشهادة عندهم مرادة لذاتها ولا لشيء سواها ، ويحتجون لإثبات ذلك بعدد من الأدلة وأهمها :

١- الآيات والأحاديث التي تبين فضل الشهادة في سبيل اللَّه مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

(١) أنوار البروق في أنواء الفروق ، الشهير بالفروق ، للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي ، عالم الكتب - بيروت ، [٢ / ٣٣] .

وقول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « انتدب اللَّه لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أن أقتل في سبيل اللَّه ثم أحيا فأُقتل »(١) .

وقول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » (٢) .

فيقولون : فهذه الأدلة وغيرها تبين أن الشهادة مرادة لذاتها ، ويجب أن تكون هدفا لكل من أراد ثواب اللَّه واليوم الآخر .

٢- إن اختيار الشهادة في سبيل اللَّه وتقديمها على شتى الاختيارات أمر قد فعله نفر من أفاضل الصحابة وكذلك قرره الفقهاء في أكثر من موضع وبيان ذلك :

○ روى أبو هريرة رضى اللَّه تعالى عنه أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم بعث عشرة عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، فنفروا لهم هذيل بقريب من مائة رجل رام فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى قردد فقالوا لهم انزلوا فأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدا فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر . فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما مع سبعة نفر ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها » (٣) .

فهذا عاصم مع سبعة مع أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد اختاروا الشهادة لما فيها من فضل وثواب فلا حرج على من اتخذ الشهادة هدفا له ، ولنا في هؤلاء أسوة حسنة .

○ إن الفقهاء قرروا أن من خشي الأسر فله أن يختار نيل الشهادة وكذلك من تساوى لديهم ظن الهلكة في المقام على الجهاد أو الانصراف منه جاز لهم طلب الاستشهاد .

---

(١) رواه البخاري [٣٦] ، ومسلم [١٨٧٦ / ١٠٦] عن أبى هريرة رضى اللَّه تعالى عنه .

(٢) رواه البخاري [٢٧٩٥] ، ومسلم [١٨٧٧ / ١٠٩] عن أنس رضى اللَّه تعالى عنه .

(٣) رواه البخاري [٣٩٨٩] ، وأبو داود [٢٦٦٠] .

وفي ذلك يقول صاحب الشرح الكبير : « وإذا خشي الأسر فالأولى أن يقاتل حتى يقتل ولا يسلم نفسه للأسر لأنه يفوز بالثواب والدرجة الرفيعة ويسلم من تحكم الكفار عليه بالتعذيب والفتنة فإن استأسر جاز » [1] ا.هـ .

ويقول أيضا : فإن غلب على ظنهم – أي المجاهدين – الهلاك في الإقامة والسلامة في الانصراف فالأولى لهم الانصراف وإن ثبتوا جاز لأن لهم غرضا في الشهادة مع جواز الغلبة أيضا ، وإن غلب على ظنهم الهلاك في الإقامة والانصراف فالأولى لهم الثبات لينالوا درجة الشهداء المقبلين على القتال محتسبين فيكونون أفضل من المولين ولأنه يجوز أن يغلبوا فقال تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ولذلك صبر عاصم وأصحابه فقاتلوا حتى أكرمهم اللّه بالشهادة » [2] .

٣– أنه يجوز أن يحمل الرجل بمفرده على صف العدو طلبا للشهادة ولا يعد ذلك من إلقاء النفس في التهلكة والدليل على ذلك ما قاله الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري : « إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار يعني قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] وذلك ردا على من استنكر على من حمل على صف الروم حتى دخل فيهم . فأبان لهم أن التهلكة في ترك الجهاد وهذا قول ابن عباس وغيره في تفسير الآية »[3] .

٤ – إن الشهادة في سبيل اللّه عامل هام في حسم الصراع مع الأعداء الذين يحرصون على الدنيا ، وبها يعوض أهل الإيمان النقص العددي والتقني عن أعدائهم ، ولعل ما نراه في فلسطين المحتلة وجنوب لبنان من عمليات استشهاد ضد الكيان الصهيوني أنصع دليل على صحة هذا المعنى ، فكيف يصح القول بأن طلب الاستشهاد ليس بغاية ؟!

---

(١) الشرح الكبير على متن المقنع – لشمس الدين ابن قدامة المقدسي الحنبلي ، المتوفى ٦٨٢هـ دار الكتاب العرب بيروت ، [٣٨٦/١٠] .

(٢) الشرح الكبير : [٣٨٨/١٠] ونحوه المغنى : [١٠/ ٤٥٥] .

(٣) رواه أبو داود [٢٥١٢] ، والترمذي [٢٩٧٢] ، والنسائي في الكبرى [١١٠٢٩/٢٩٩/٦] وقال الألباني : صحيح ، وابن حبان [٤٧١١] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، والحاكم في المستدرك [٩٤/٢] .

هذه هي أبرز استدلالات من اتخذ الشهادة غاية لجهاده في سبيل اللّه ، وقد آن الأوان الآن أن نضع هذه الاستدلالات تحت مجهر الشريعة لكي يستبين لنا فجر الحقيقة والصواب بشأنها .

الرد على الاستدلالات السابقة :

وقبل الشروع في مناقشة هذه الاستدلالات لابد من تحرير محل الخلاف فلنقرر أولا أنه لا خلاف معهم في عظم أجر الشهادة ولا في فضلها ، كما أنه لا خلاف في فاعلية سلاح الشهادة لتحقيق أهداف الأمة الإسلامية ولكف بأس أعدائها ، وإنما يكمن الخلاف في جعل الشهادة غاية مرادة لذاتها يقدم عليها المسلم دونما اعتبار لأي أمر آخر أو انتباه لغايات الجهاد الأساسية ، وإذا تحرر لدينا محل الخلاف فلنشرع في مناقشة ما أوردوه من استدلالات .

أولا : أن الأجر العظيم الذي وعده اللّه الشهداء مشروط بالشروط التي يجب توافرها في أي عمل كي يكون مقبولا عند اللّه ، وهذه الشروط تدور حول توفر شرطي الإخلاص لله في العمل والمتابعة والموافقة للشرع .

وهذا يعني أن هذا الأجر والثواب إنما يكون للمخلص في طلب الشهادة في جهاد مشروع موافق لأحكام الشريعة الغراء ، ونحن لا نملك التشكيك في إخلاص أحد ، فأمر القلوب موكل لبارئها بل نحسب أن أكثر الشباب المسلم الذي يقدم على طلب الشهادة اليوم لديه من الإخلاص والصدق القدر الكبير .

لكن لا يسعنا في هذا المقام سوى التنبيه – وبقوة – على حقيقة نراها جلية واضحة ، وهي أننا نرى في غمرة الحماسة والرغبة في الثواب أو من جراء الغضب لانتهاك حرمات اللّه أو الطعن في الدين ؛ يقدم البعض على أعمال يطلبون بها الشهادة دونما تحقيق مطابقة هذا العمل لأحكام الشريعة .

فليست المسألة مجرد توفر الشجاعة للإقدام على فعل ما يحقق به الإنسان الشهادة لكن المهم هو توفر الأسباب الشرعية التي تبيح هذا الفعل ومدى تحقيق المصالح المرجوة منه .

فما بالنا ونحن نرى في كثير من الأحوال عدم توفر تلك الأسباب فضلا عن وقوع المفاسد العديدة في مواقف كثيرة ، والتي لا يشفع لتصويبها مجرد الرغبة

في نيل الشهادة ، ومن أقدم عليها وهو يعلم ذلك يخشى عليه أن لا ينال منزلة الشهداء ، بل هو في عداد المخطئين .

ثانيا : لا يصح اتخاذ الشهادة غاية - رغم أنها ليست في عداد الغايات - إذ تعارضت مع مقاصد الجهاد الأساسية .

فقد تقرر في أصول الفقه أن المصالح الجماعية أو العامة تقدم عند التعارض مع المصالح الفردية أو الخاصة .

فتطبيق هذه القاعدة الأصولية على من اتخذ الشهادة غاية له لما فيها من مصلحة أخروية يرجوها ، سنجد أنها تمثل مصلحة لا يصح تقديمها عند التعارض على المصالح العامة التي وضع لها الجهاد من إعزاز الدين وإقامته وغير ذلك .

ومن باب أولى لا يصح تقديم مصلحة الفرد في تحصيل الشهادة في سبيل اللّه متى اكتنفتها المفاسد العديدة التي تمس الأمة بأسرها ؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

يقول ابن نجيم الحنفي : « درء المفاسد أولى من جلب المصالح ، فإذا تعارضت مفسدة ومصلحة قدم دفع المفسدة غالبا ؛ لأن اعتناء الشرع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات » [1] ا.هـ

كما أنه لا يسوغ تحصيل المصالح اليسيرة متى صاحب ذلك حدوث المفاسد الكبيرة من جراء تحصيلها .

قال ابن تيمية : « والحسنة تترك في موضعين : إذا كانت مفوتة لما هو أحسن منها ؛ أو مستلزمة لسيئة تزيد مضرتها على منفعة الحسنة » [2] ا.هـ .

وإذا كان جلب المصلحة الخاصة اليسيرة يترتب عليها ضرر أكبر أكيد بالغير فلا يصح القصد إليها لما فيها من الإضرار به ؛ لقول النبي صلى اللّه عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضِرار »[3] وذلك رغم كون هذه المصلحة مشروعة وفيها نفع للنفس .

---

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي - دار الفكر دمشق - [٩٦] .

(٢) مجموع الفتاوى ؛ لشيخ الإسلام أبى العباس ابن تيمية ، مطابع العربية بيروت [٢٠ / ٥٣] .

(٣) رواه ابن ماجه [٢٣٤٠] عن عبادة بن الصامت رضى اللّه تعالى عنه ، وقال الألباني : صحيح .

يقول الإمام الشاطبي : « فلا إشكال في منع القصد إلى الإضرار من حيث هو إضرار لثبوت الدليل على أنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام ، لكن يبقى النظر في هذا العمل الذي اجتمع فيه قصد نفع النفس وقصد إضرار الغير هل يمنع منه فيصير غير مأذون فيه ، أم يبقى على حكمه الأصلي من الإذن ويكون عليه إثم ما قصد ؟ هذا ما يتصور فيه الخلاف على الجملة »[1] ا.هـ .

وقد يقال : إن الراغب في الشهادة لا يقصد سوى تحصيل مصلحة نفسه بالشهادة ولا يقصد الإضرار بالغير ولا يرجوه ، فنقول إن الإمام الشاطبي يجيب أيضا على هذا فيقول : « وأما القسم الخامس فهو أن لا يلحق الجالب - أي للمصلحة - أو الدافع - أي للمفسدة - ضرر ولكن أداؤه إلى المفسدة قطعي عادة فله نظران - نظر - من حيث كونه قاصدا لما يجوز أن يقصد شرعا من غير قصد إضرار بأحد ، فهذا من هذه الجهة جائز لا محظور فيه ، ونظر من حيث كونه عالما بلزوم مضرة الغير لهذا العمل المقصود مع عدم استضراره بتركه فإنه من هذا الوجه مظنة لقصد الإضرار ؛ لأنه في فعله إما فاعل لمباح صرف لا يتعلق بفعله مقصد ضروري ولا حاجي ولا تكميلي ، فلا قصد للشارع في إيقاعه من حيث يوقع . وإما فعل المأمور به على وجه يقع فيه مضرة مع إمكان فعله على وجه لا يلحق به مضرة وليس للشارع قصد في وقوعه على الوجه الذي يلحق به الضرر دون الآخر . وعلى كلا التقديرين فتوخيه لذلك الفعل على ذلك الوجه مع العلم بالمضرة ، لا بد فيه من أحد أمرين : إما تقصير في النظر المأمور به وذلك ممنوع ، وإما قصد إلى نفس الإضرار وهو ممنوع أيضا فيلزم أن يكون ممنوعا عن ذلك الفعل لكن إذا فعله فيعد متعديا بفعله ويضمن ضمان المعتدي على الجملة ، وينظر في الضمان بحسب النفوس والأموال على ما يليق بكل نازلة ولا يعد قاصدا البتة إذا لم يتحقق قصده بالتعدي »[2] ا.هـ .

وبهذا يتضح أن اتخاذ الشهادة غرضا بمنأى عن حساب الضرر الذي يلحق بالغير لا يصح شرعا الإقدام عليه ، وهذا الغير قد يكون فردا أو جماعة ، أو الأمة الإسلامية ،

(١) الموافقات للشاطبى [٢ / ٢٧١] .

(٢) الموافقات للشاطبى [٢ / ٢٧١] .

أو الدين وأهله . قال ابن تيمية رحمه اللّه : « والشارع أمر كل إنسان بما هو المصلحة له وللمسلمين » [1] ا.هـ .

فالواجب على كل أحد أن يراعي عند فعله تحقيق ما هو مصلحة له وأيضا للمسلمين .

ثالثا : لا يصح اعتبار طلب الشهادة غاية مرادة لذاتها شرع الجهاد من أجلها ؛ وذلك لأننا وجدنا النبي صلى اللّه عليه وسلم الذي حث عليها ورغب فيها ، قد عاد من حصاره للطائف دون أن يكمل الجهاد الذي بدأه ، ودون أن يستمر عليه لينال هو وأصحابه الشهادة وهو صلى اللّه عليه وسلم نفسه الذي مدح ما فعله خالد بن الوليد رضى اللّه تعالى عنه عندما انسحب بجيش المسلمين في غزوة مؤتة بعد أن كاد الهلاك يصيبه وهذا كله وغيره كثير يدل على أن الشهادة غير مرادة لذاتها وليست من مقاصد الجهاد الأصلية ، بل تندرج في المصالح التبعية التي يتم تحصيلها في أثناء الجهاد المشروع .

رابعا : إن الأدلة التي ساقوها لتأكيد ما يذهبون إليه تؤكد أن الشهادة ليست مرادة لذاتها وإنما لما فيها من تحقيق مصالح الدين فهي مرادة لغيرها .

وبالنظر لما ذكروه من أدلة نجد الآتي :

١ - إن الاستدلال بقصة عاصم بن ثابت ومن معه من الصحابة لا يعد دليلا على كون الشهادة غاية واجب القصد إليها في كل حال ؛ لأن عاصم رضى اللّه تعالى عنه كان أمام خيارين متساويين في النتيجة ، فسواء أقام على القتال أو أسلم نفسه للكفار ليأسروه فالنتيجة واحدة ولا توجد أي مصلحة أخرى من الإبقاء على نفسه ترجح ذلك الخيار ، ولا توجد مضرة تقع على غيره باستشهاده ، فلا غرو - والحال هكذا - أن يقبل على الشهادة ، ولكن حتى والحال كذلك فاختيار الشهادة ليس بواجب لكنه الأولى فحسب كما يقول الفقهاء ، ولو كانت الشهادة غاية في حد ذاتها لوجب ذلك .

ولنقرأ ما قاله صاحب الشرح الكبير : « وإذا خشي الأسر فالأولى أن يقاتل حتى يقتل (...) فإذا استأسر جاز » [2] ا.هـ .

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية [٢ / ٢٤٥] ، المكتبة العلمية . بيروت .

(٢) الشرح الكبير لشمس الدين ابن قدامة [١٠ / ٣٨٦] .

فهو يقرر أن الأمر على سبيل الجواز والأولى وليس الحتم والواجب .

وكذلك أنظر لقوله : « وإن غلب على ظنهم الهلاك في الإقامة والانصراف فـ : الأولى الثبات لينالوا درجة الشهداء المقبلين على القتال ، ولذلك صبر عاصم وأصحابه رضى اللَّه تعالى عنهم فقاتلوا حتى أكرمهم اللَّه بالشهادة » [1] ا.هـ .

وهذا أيضا جعله الإمام ابن قدامة رحمه اللَّه من باب الأولى ، وهكذا الحال في كل قتال مشروع تتساوى فيه النتائج من الاستمرار في القتال أو الانصراف عنه دونما يترتب ضرر زائد من الإقدام على الشهادة .

٢ - أما الاستدلال بما ذكره الفقهاء من جواز هجوم الرجل على صف الكفار بمفرده ، وأن هذا لا يعد من إلقاء النفس إلى التهلكة المحرمة شرعا فهو لا ينتج لهم ما يقولون وبيان ذلك : « أن الفقهاء أجازوا ذلك عندما يكون فيه مصلحة للدين وإلا فلا .

يقول العلامة ابن عابدين الحنفي: ذكره في شرح السير أنه لا بأس أن يحمل الرجل وحده وإن ظن أنه يقتل إذا كان يصنع شيئا يقتل أو يجرح أو يهزم فقد فعل ذلك جماعة من الصحابة بين يدي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوم أحد ومدحهم على ذلك ، فأما إذا علم أنه لا ينكىء [2] فيهم فإنه لا يحل له أن يحمل عليهم لأنه لا يحصل بحملته شيء من إعزاز الدين » [3] ا.هـ .

ويقول الإمام الصنعاني رحمه اللَّه : « وقال المصنف في مسألة حمل الواحد على العدد الكثير من العدو : صرح الجمهور أنه إذا كان لفرط شجاعته وظنه أنه يرهب العدو بذلك أو يجرئ المسلمين عليهم أو نحو ذلك من المقاصد الصحيحة فهو حسن ، ومتى كان مجرد تهور فممنوع لاسيما إن ترتب على ذلك وهن المسلمين » [4] ا.هـ .

---

(١) المصدر السابق [١٠ / ٣٨٨] .

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه أبو داود [٣١٠٧] وقال الألباني : صحيح ، وابن حبان في صحيحه [٢٩٧٤] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن ، والحاكم في المستدرك [١ / ٧٣٤] عن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى اللَّه عليه وسلم : « إذا جاء الرجل يعود مريضا فليقل اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدوا أو يمشي لك إلى جنازة .

(٣) حاشية ابن عابدين [٤ / ١٢٧] .

(٤) سبل السلام للأمير الصنعاني دار الحديث [٤ / ١٣٤٨] .

ولنقف مع الإمام الشوكاني عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] الحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكان ما صدق عليه أنه تهلكه في الدين أو في الدنيا فهو داخل في هذا . وبه قال ابن جرير الطبري ؛ ومن جملة ما يدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل في الحرب ؛ فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين ، ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الدين أو السبب فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها وهو ظني تدفعه لغة العرب » [1] ا.هـ .

فهذه الأقوال للأئمة تبين أن مثل هذا الصنيع مشروط بأن يكون فيه مصلحة زائدة عن مصلحة طلب الشهادة في سبيل اللّه ، وإلا فلا يصح .

وإذا ظهر لنا بعد هذا الاستعراض أن الشهادة في سبيل اللّه غير مقصودة لذاتها وإنما تقصد لغيرها من المصالح ، وهذا يتمشى مع منطق الإسلام في ترجيح المصالح الجماعية على غيرها ويخطئ من يجعل غاية الجهاد غاية فردية ينطلق لتحقيقها دون أدنى اعتبار لمصالح الإسلام الكلية ؛ لأن حرارة العواطف وحماسة القلوب لا تغني عن عقلانية الأداء والحفاظ على الغايات .

ثانيا : مناقشة من فك الارتباط بين الجهاد وغايته

هناك ارتباط وثيق بين الغاية والوسيلة الموصلة إليها يجب الحفاظ عليه ويظهر ذلك أكثر ما يظهر في الارتباط بين الجهاد كوسيلة وغاياته المتعددة ، فالجهاد يجب أن يكون موصلا لتلك الغايات وإلا فلا يصح اللجوء إليه ، وهذا يتطلب أن تتوفر لتلك الوسيلة الامكانيات والقدرات القادرة على تحقيق هذا الهدف .

ومع وضوح هذا الارتباط فإننا نجد من يهمله ويمضي في الجهاد دون أن يعبأ بالنتائج أو التأكد من وجود الفرصة المتاحة لتحقيق الغايات المستهدفة به ، أو الانتباه إلى احتمالية حدوث مفاسد عكس الغايات المرادة ، ومن الطبيعي - والحال كذلك - أن نرى من يصر

(١) تفسير فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ، للإمام محمد بن علي الشوكاني [١ / ١٩٣] .

على الجهاد مع وضوح عدم فاعليته لتحقيق الغاية ، إما لنقص عدد أو عدة أو لسوء تنظيم أو تخطيط .

فالذي يفك الارتباط بين الجهاد وغايته من الطبيعي أن يمضي للجهاد بمعزل عن ابتغاء المصلحة المرادة منه وبغض النظر عن مدى توفر القدرة عليه .

☜ وهؤلاء إذا سألتهم : لماذا الجهاد والمصلحة منه مفتقدة والقدرة عليه غائبة ؟

تأتي الإجابة السريعة : ليس علينا النتائج ، إنما النتائج على اللّه . أو لم تسمع قول اللّه تعالى مخاطبا الرسول الكريم : ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء : ٨٤] .

☜ وهل يمكن للمؤمن أن يشك في قوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

ونحن لا نتفق مع هذا الاستدلال والتوظيف لهذه الآيات لتسويغ ممارسة الجهاد دون نظر للمصالح أو القدرات . وبيان ذلك :

١- إذا كان إنفاذ القتال لا يتطلب سوى أن يكون المجاهد مستطيعا بمفرده القيام به لقوله تعالى : ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء : ٨٤] لأصبح قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] عديم الفائدة ! معاذ اللّه .

٢- إذا كان الجهاد لا يتطلب سوى الاستعداد الشخصي لإنفاذه والاستمرار فيه فلماذا ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قتال اليهود عندما هاجر إلى المدينة واتفق معهم على الدفاع عنها ضد أي غزو يستهدفها ؟ ولماذا قفل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى المدينة تاركا حصار الطائف بعد أن استعصى عليه فتح حصنها ؟ ولماذا لم يواصل صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه القتال في غزوة أحد بعد أن صارت الجولة للمشركين ؟ ولماذا لم يحتج أحد منهم عليه صلى اللّه عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ؟ ولماذا لم يقل أحد منهم لماذا لا تقاتل يا نبي اللّه وقد

قال اللّه لك : ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء : ٨٤] ؟ لقد كان الصحابة أفقه من أن يقولوا هذا ؛ لأنهم يعلمون أن الجهاد كوسيلة إنما يراد للوصول للغايات المشروعة ، فإذا لم يكن الوصول لها عبره فلا حرج في تركه .

٣- إن الإقدام على الجهاد دونما اعتبار لتوفر القدرات المطلوبة لإنفاذه إنما هو إهدار للأرواح والجهود دونما طائل أو مصلحة ترتجى وهذا أمر تمنع منه الشريعة وتحرمه ، فقد أمرت الشريعة بتحصيل المصالح ودرء المفاسد وجاءت لدفع الشرور واستجلاب الخيرات .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : « أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم ، إذا ما أجمعوا قتالهم فينبغي أن نقدم هنا مصلحة حفظ النفس ؛ لأن المصلحة المقابلة وهي حفظ الدين موهومة ، أو منفية الوقوع ، ويقرر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في هذا الجهاد قائلا : « إذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام لما في الثبوت من فوات النفس ومن شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة »[1] ا.هـ

ويقرر ابن تيمية رحمه اللّه القاعدة العامة الجامعة فيقول : « الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإنما ترجح خير الخيرين وأقل الشرين وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما »[2] ا.هـ .

٤- كيف يصبح حمل الأمر في قوله تعالى : ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء : ٨٤] على الوجوب وقد أجاز اللّه سبحانه وتعالى للمسلم أن يفر عن ضعف عدده من الكفار ولو كان الأمر للوجوب لوجب الثبات بغض النظر عن العدد .

---

(١) فقه السيرة للبوطي [٧٧] .

(٢) مجموعة الفتاوي [٢٠ / ٤٨] .

قال الإمام ابن كثير : « عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتلوا عشرين مائتين ، ومائة ألفا فخفف اللَّه عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٦] فكانوا إذا كانوا على الشطر الأول من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا عن عدوهم وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتجوزوا عنهم »[1] ا.هـ .

٥- أما قولهم : ليس علينا النتائج إنما النتائج على اللَّه فهو قول صحيح يحتاج إلى بيان واستكمال ، وهو أنه بعد الأخذ بالأسباب التي أمر اللَّه بها فالنتائج بعد ذلك على اللَّه فلابد من أخذ الأسباب المشروعة والتي يتوصل بها إلى النتائج المرغوبة ، أما من ترك تلك الأسباب وأراد الوصول إلى الغايات فهو واهم مغرور ..

إن السفينة لا تجري على اليابس ترجو النجاة ولم تسلك مسلكها

وترك الأسباب المأخوذ بها ، وانتظار النتائج نوع عجز يطعن في التوكل ويوهنه .

يقول الإمام ابن القيم : « فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض ، ولا يجعل عجزه توكلا ، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها » .

ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس ، إحداهما : زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كاف في حصول المراد ، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة اللَّه الموصلة إلى مسبباتها ، فوقعوا في نوع من التفريط والعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب ، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب ، فجمعوا الهم كله وصيروه هما واحدا وهذا وإن كان فيه قوة من هذا الوجه ، ففيه ضعف من جهة أخرى ، فكلما قوي جانب التوكل بأفراده ، أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل ، فإن التوكل محله الأسباب ، وكماله بالتوكل على اللَّه فيها ، وهذا كتوكل الحرَّاث الذي شق الأرض ، وألقى فيها البذور ؛ فتوكل على اللَّه في زرعه وإنباته ، فهذا قد أعطى

(١) تفسير القرآن العظيم [٢ / ٣٠٠] .

التوكل حقه ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض والابقاء عليها بورا ، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جده في السير ، وتوكل الأكياس في النجاة من عذاب اللَّه والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته ، فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره ، ويكون اللَّه حسب من قام به .

وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره وليس اللَّه حسب صاحبه ، فإن اللَّه إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه ، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها ، لا إضاعتها .

والطائفة الثانية : التي قامت بالأسباب ورأت ارتباط المسببات بها شرعا وقدرا وأعرضت عن جانب التوكل ، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته فليس لها قوة أصحاب التوكل ، ولا عون اللَّه لهم وكفايته إياهم ودفاعه عنهم بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل .

فالقوة كل القوة في التوكل على اللَّه كما قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على اللَّه ، فالقوة مضمونة للمتوكل ، والكفاية والحسب والدفع عنه ، إنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل ، وإلا فمع تحققه بهما لابد أن يجعل اللَّه له مخرجا من كل ما ضاق على الناس ويكون اللَّه حسبه وكافيه » [1] ا.هـ .

فبعد الأخذ بالأسباب المشروعة والتأكد من شرعية الجهاد المزمع الإقبال عليه وتوفر القدرة اللازمة لتحقيق الغاية منه ، يصح القول : ليس علينا النتائج إنما النتائج على اللَّه .

عندما تتعارض أو تتزاحم غايات الجهاد :

تبقى قضية جديرة بالاهتمام تحتاج إلى توضيح وبيان ، وتتعلق بغايات الجهاد المتعددة واحتمالية وجود أكثر من غاية منها يزاحم بعضها بعضا في آن واحد وتتعارض بحيث لا يمكن تحقيق بعضها إلا على حساب البعض الآخر ، وهذه الفريضة ليست فريضة نظرية لا علاقة لها بالواقع ، وإنما هي مسألة واقعية يجدها كل من له علم واطلاع ومتابعة لمتغيرات الواقع ومستجداته والتي لا شك تدخل بقوة في إعادة ترتيب الواجبات المفروضة أو إسقاط بعضها ، وتكثر ظهور هذه القضية كلما كان المسلمزن في حال وهن واستضعاف وعندما تتعدد صور العداء لهم وتتنوع .

(١) زاد المعاد لابن القيم [٢ / ٢٠ ، ٢١] المكتبة القيمة .

ففي مثل هذا الحال قد يظن البعض أن الواجب عليه القيام بالجهاد لتحقيق كل هذه الغايات المتعددة رغم عدم تمكنه من ذلك .

وهذا ظن ليس في محله ؛ وهناك واجب أوكد من واجب آخر فيجب تقديمه ، وهناك غاية أولى من أخرى فيجب أن لا تؤخر ، وهذا من الفقه النفيس الذي أبانه لنا شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله : فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحالة واجبا ، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة ، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرما في الحقيقة . وإن سمي ذلك ترك واجب وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر وفعل المحرم للمصلحة الراجحة ، أو للضرورة أو لدفع ما هو محرم » [1] ا.هـ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه : « فالتعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما ، فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح ، وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما ، فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما ، وإما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة ، وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة » [2] ا.هـ .

ويقول ابن تيمية أيضا : « وهذا باب التعارض باب واسع جدا لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة ، فإن هذه المسائل تكثر فيها ، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل ، ووجود ذلك من أسباب الفتن بين الأمة ، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم ، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة ، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة ، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة أو يتبين لهم فلا يجدون من يعينهم

(١) مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٢٠ / ٥٧] .

(٢) مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٢٠ / ٥١] .

على العمل بالحسنات وترك السيئات ، لكون الأهواء قارنت الآراء ، ولهذا جاء في الحديث : إن اللّه يحب البصر النافذ عند ورد الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » [1] ا.هـ .

منظمة القاعدة وتزاحم الغايات :

والمتأمل في الاتجاهات التي سلكتها منظمة القاعدة عبر أعمالها القتالية سيجدها كاشفة عن غايات متزاحمة ومتعارضة ولم يتم فض الاشتباك بينها بحيث يتم تقديم ما يستحق التقديم منها وما يقبل التحقيق .

☜ ولكن كيف تزاحمت غايات الجهاد أمام القاعدة ؟

يمكن رصد ذلك من خلال الآتي :

فبعد أن أحسنت القاعدة صنعا بإعلانها عدم جدوى الدخول في صراعات مع النظم الحاكمة في الدول الإسلامية ، سارعت إلى الإعلان عن عزمها على إخراج أمريكا من الخليج والأماكن المقدسة كهدف وغاية لجهادها ثم لم تلبث إلا قليلا حتى أعلنت الجهاد ضد الصليبيين واليهود والأمريكان وفي نفس الوقت مارست بالفعل لا بالقول ضروبا من الجهاد متنوعة عبر دعم بعض الحركات الإسلامية الساعية للاستقلال , وهكذا تزاحمت الغايات أمامها ، وأرادت القاعدة تحقيقها دفعة واحدة وأقدمت على ذلك مغفلة أهم الغايات على الإطلاق والتي كان يجب أن تندب نفسها لها ألا وهي الدفاع عن دولة الإسلام بأفغانستان .

وكانت النتيجة المنطقية لهذا الخلل في تحديد الغاية الأولى بالترجيح وإهمال اعتبار القدرات عند ترتيب الغايات المتزاحمة هي عدم تحقيق أي غاية منها ، فالدولة الإسلامية في أفغانستان تلاشت ، والأمريكان لم يخرجوا من الخليج والحركات الإسلامية لم تنجح واحدة منها في نيل الاستقلال ، والصراع الديني مع اليهود والصليبيين لم يحقق سوى المزيد من تكالب الأعداء .

ولو أن القاعدة اختارت الدفاع عن الدولة الإسلامية الوليدة في أفغانستان كغاية أولى لجهادها وأرجأت غير ذلك من الغايات التي لا تدخل في حيز الإمكان ما كانت بذلك تاركة لجهاد واجب ولكان ذلك أقوم وأهدى سبيلا .

(١) مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٢٠ / ٥٧ ، ٥٨] .

المطلب الرابع :

الجهاد وسيلة من الوسائل

نبل الغايات وواقعية الوسائل :

لم يكتف الإسلام بالتبشير بغايات سامية ونبيلة فحسب ، وإنما شرع بجوارها من المبادئ والوسائل ما يجعلها واقعا حيا معاشا ، فأتت الغايات سامية وتعددت الوسائل الموصلة إليها بما يتلاءم مع كافة الأحوال .

فلم يكن الإسلام غافلا - ولم يغفل وهو وحي من رب العالمين - عن اختلاف الأحوال كسمة لصيقة بالدنيا وبالبشر ، ولم يكن أيضا غافلا عن تجدد الواقع لحظة بعد لحظة وما يفرضه ذلك من مستجدات قد تحتاج تفاعلا جديدا معها ؛ ومن هنا كان منطقيا أن تتعدد الوسائل التي يقدمها الإسلام لأبنائه لترشيد تعاليمهم وعلاقاتهم بالواقع المعاش وأيضا لجعلهم أكثر فاعلية في تحقيق الغايات .

والإسلام وهو يسعى لتغيير الواقع وتزيينه بقيم الإيمان يعلم إنه سيصطدم بمن يجهله وأيضا بمن يرفضه ، وسيواجه من يعاديه ومن يحاول محقه ؛ ومن ثم كان العلاج الذي يقدمه الإسلام حتما متنوعا ومختلفا ، فعلاج الجاهل المعرفة ، وعلاج الرافض الإقناع ، وعلاج العداء سل الخصومة ، ودواء العدوان رد الاعتداء وقمع الأعداء .

والإسلام وهو يأمر أتباعه بترجمة منهج اللّه إلى واقع حي معاش يدرك أنهم تارة يقدرون وتارة لا يستطيعون ؛ ومن ثم سلحهم بالوسائل التي تليق بكل حال ، وإذ لم يفعل ذلك لكان دينا خياليا متعنتا يوقع أتباعه في الحرج ويصيبهم بالعنت وكيف يتصور وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] . ووصفه سبحانه لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

الجهاد بين الفكر الحتمي والخيارات النبوية الراشدة :

نعم لم يكن الإسلام دينا خياليا ، بل كان دينا واقعيا يعطي لأتباعه الأدوات المتنوعة للتعامل مع الواقع ويخطئ من ينسب نفسه للإسلام ويختزل تلك الأدوات في أداة واحدة يلزمها ولا يتعداها ويجعلها حلا لكل موقف وفي كل وقت ومن يفعل ذلك

يغفل عن أن لكل موقف حلا أليق به يجب أن يبحث عنه ويتعرف عليه من بين الحلول والوسائل التي تقدمها الشريعة للتعامل مع الواقع ، لكن هذا الواجب هناك من لا يلتفت إليه فالمسألة عند البعض لا تحتاج لبحث فالجهاد هو الحل ، والقتال هو الطريق ، وقد ينطلق في ذلك من فهم خاطئ يذهب إلى أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة التي أتت بها الشريعة ، أو من تقدير خاطئ ينطلق من عدم جدوى غيره من الوسائل .

ولو تمعن هؤلاء الأحبة في آيات القرآن وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لكفونا عناء المناقشة معهم ؛ ولعلموا أن الخيار العسكري ليس هو الخيار اللازم دائما أو الوسيلة الوحيدة الفريدة ، ولأدركوا أن الجهاد خيار من خيارات ، ووسيلة ضمن وسائل لكل منها فقهها وأحكامها . وندعوهم للتعرف على الخيارات والسياسات النبوية الراشدة المؤيدة بالوحي والتي تذخر بها سيرته صلى اللّه عليه وسلم العطرة والتي ترسم لنا عالم الطريق .

الخيارات النبوية الراشدة :

كانت إقامة الدين وتعبيد الناس لرب العالمين محورا لحياة النبي صلى اللّه عليه وسلم من أجلها يتحرك ، وعلى أساسها يوالي ويعادي ، ولتحقيقها سلك كل سبيل فترك للمؤمنين ثروة من الخيارات والوسائل التي يتاح لهم أن يسلكوها وفقا لما يحتاجه واقعهم وبما يحقق غايتهم .

وقبل أن نستعرض تلك الخيارات النبوية فإننا نعجب أشد العجب ممن يلزم أحد هذه الخيارات دون غيرها ولربما نجده يأنف من قبول بعضها - جهلا بمشروعيتها - وربما قد ينكر على من يطرحها ، وإنا لنعجب من هؤلاء ، وكأنهم لم يسمعوا قول ربهم : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ويقول الإمام ابن كثير رحمه اللّه : « هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي صلى اللّه عليه وسلم يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل » [1] ا.هـ .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير [٣ / ٤٣٦] .

ولنسلط الأضواء الآن على تلك السياسات الشرعية والخيارات النبوية والوسائل الراشدة وليكن لنا في رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أسوة حسنة :

أولا : الدعوة لدين اللَّه :

ولقد كانت حياته صلى اللَّه عليه وسلم دعوة لدين اللَّه استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] . وقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِى أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وهل ننسى جولاته الدعوية مع قريش ورحلته إلى الطائف وما لاقاه من أذى في سبيل نشر دعوة التوحيد ؛ حتى أذن اللَّه تعالى له وأرسل مصعب بن عمير داعيا هاديا إلى المدينة ففتح اللَّه به حتى احتضنت المدينة دولة الإسلام الأولى بقيادة النبي صلى اللَّه عليه وسلم ليواصل دعوته لكل القبائل من حوله ، وأرسل الرسل إلى فارس والروم دعاة وهداه لهذا الدين .

ثانيا : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

جاء استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وأبان صلى اللَّه عليه وسلم لأمته أهمية هذا الفرض العظيم وأوضح لها متى تأمر أو تنهى ؟ ومتى لا يصح أمر أو نهي ؟ وكيف الأمر يكون أو النهي ؟ وما الذي يصح فيه النهي وما لا يصح ؟ كل ذلك التفصيل في الأحكام المنظمة لهذه الوسيلة لدورها الحيوي في تخليص المجتمع من سلبياته وتقوية مناعته .

ثالثا : الصبر والمصابرة :

ولقد لزم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم هذا الخيار في كثير من الأوقات قبل أن يؤمر بالجهاد وهو بمكة ، وأيضا صبر على المنافقين وأذاهم بالمدينة واليهود ومكرهم قبل أن يخرجهم منها ، وأمر بلزوم الصبر في قتال الفتنة وإن لحقه أذى أو قتل مظلوما .. ، وجعله اللَّه خيارا للمستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

رابعا : التعاون على البر والتقوى والتحالف على الخير ورد الظلم والعدوان :

ويأتي هذا الاختيار النبوي استجابة لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

وقد يرى البعض أن هذا التعاون أو التحالف على ما فيه خير أو لرد العسف والظلم مقصور على التعاون أو التحالف مع المؤمنين دون غيرهم من العصاة أو الظالمين أو حتى الكافرين ، وهذا خطأ كبير لا يتفق مع سيرة سيد المرسلين صلى اللّه عليه وسلم فطالما كان الأمر مشروعا ويعد مما يحبه اللّه تعالى ورسوله صلى اللّه عليه وسلم فلا حرج في التحالف أو التعاون على تحقيقه مع أي أحد كائنا من كان .

وذلك مأخوذ من أدلة عديدة نذكرها تباعا :

○ **الدليل الأول :**

قول النبي صلى اللّه عليه وسلم عندما علم بأن قريشا تريد منعه من العمرة في عام الحديبية : « والذي نفسي بيده لا يسألون خطة يعظمون فيها حرمات اللّه إلا أعطيتموها » [(١)] .

ويستنبط الإمام ابن القيم رحمه اللّه من هذا حكما دقيقا بديعا فيقول : « ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمرا يعظمون فيه حرمة من حرمات اللّه تعالى أجيبوا إليها وأعطوه وأعينوا عليه وإن منعوا غيره ، فيعاونون على تعظيم حرمات اللّه تعالى لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرضٍ له أجيب إلى ذلك كائنا من كان ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغض لله أعظم منه وهذا أدق المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق » [(٢)] ا.هـ .

○ **الدليل الثاني :**

قوله صلى اللّه عليه وسلم : « وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » [(٣)] .

---

(١) رواه البخاري [٢٧٣٤] ، وابن حبان في صحيحه [٤٨٧٢] عن المسور بن مخرمة .

(٢) زاد المعاد لابن القيم [٢ / ١٢٨] .

(٣) رواه مسلم [٢٥٣٠ / ٢٠٦] عن جبير بن مطعم رضى اللّه تعالى عنه .

وقوله صلى اللَّه عليه وسلم عن حلف الفضول [١] الذي كان في الجاهلية : « لقد شهدت في دار عبد اللَّه بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » [٢]

يقول الإمام أبو حسن الماوردي : « هذا وإن كان فعلا جاهليا دعتهم إليه السياسة فقد صار بحضور رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وما قاله في تأكيد أمره حكما شرعيا وفعلا نبويا » [٣] ا.هـ .

قال ابن الأثير : « مادة حلف » فيه : أنه عليه السلام حالف بين قريش والأنصار » ، وفي **حديث آخر** : قال أنس رضى اللَّه تعالى عنه : « حالف رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دارنا مرتين »[٤] . أي آخى بينهم وعاهد .

وفي حديث آخر « لا حلف في الإسلام »[٥] أصل الحلف : المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والإنفاق فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات ، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « لا حلف في الإسلام ، وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم ، وصلة الأرحام كحلف المطيبيين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه صلى اللَّه عليه وسلم : « وأيما حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة »[٦] يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق وبذلك

---

(١) هو حلف تداعى إليه قبائل من قريش ، فاجتمعوا له في دار عبد اللَّه بن جدعان فتعاقدوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا له وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . راجع قصته في الروض الأنف للسهيلي ، الناشر دار الكتب العلمية [١ / ٢٤٢]

(٢) رواه البيهقي [٦ / ٣٦٧ / ١٢٨٥٩] .

(٣) الأحكام السلطانية لأبى الحسن الماوردي دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الأولى [ص : ٧٩] .

(٤) رواه أبو داود [٢٩٢٦] عن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه وقال الألباني : صحيح .

(٥) رواه البخاري [٢٢٩٤] ، ومسلم [٢٥٢٩ / ٢٠٤] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه .

(٦) رواه مسلم [٢٥٣٠ / ٢٠٦] ، والطبراني في المعجم الكبير [٢ / ١٤١ / ١٥٩٧] عن جبير ابن مطعم رضى الله تعالى عنه .

يجتمع الحديثان وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام »[1] ا.هـ .

قال السهيلي بعد أن أورد قصة حلف الفضول وقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « لو دعيت به اليوم لأجبت » ، يريد لو قال قائل من المظلومين : يا لحلف الفضول لأجبت ؛ وذلك أن الإسلام إنما جاء بإقامة الحق ونصرة المظلومين ، فلم يزدد به هذا الحلف إلا قوة . وقوله عليه السلام : « وما كان من حلف في الجاهلية فلن يزده الإسلام إلا شدة « ليس معناه : أن يقول الحليف يا لفلان لحلفائه فيجيبوه بل الشدة التي عنى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إنما هي راجعة إلى معنى التواصل والتعاطف والتآلف ، وأما دعوى الجاهلية فقد رفعها الإسلام إلا ما كان من حلف الفضول كما قدمنا »[2] ا.هـ .

○ **الدليل الثالث :**

قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ .

وقول النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما « قيل : يا رسول اللَّه هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال : تحجزه وتمنعه من ظلمه فذاك نصره »[3] .

○ **الدليل الرابع :**

السيرة العملية لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد اشتملت على تعاون وتحالف على ما هو مشروع وفيه خير للإسلام والمسلمين مع غير المسلمين ونذكر من ذلك الوقائع الآتية :

١- عندما هاجر النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى المدينة كتب كتابا بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار واليهود ونقتطف منه بعض بنوده[4] التي تبين طبيعة التحالف الذي نشأ في ظله وبين أطرافه :

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير [٦ / ٤٢٤] .

(٢) الروض الآنف للسهيلي [١ / ٢٤٨] .

(٣) رواه البخاري [٣٤٤٣] عن أنس بن مالك رضى اللَّه تعالى عنه .

(٤) راجع نص الكتاب في المصادر الآتية :

مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة إعداد الدكتور : محمد حميد اللَّه الحيدري آبادي الناشر مكتبة مدبولي [١ / ٧٠١] ، المنهج الحركي للسيرة النبوية لمنير الغضبان مكتبة المنار الأردن [٢٠٩] البداية والنهاية لابن كثير دار الغد العربي [٢ / ٢٦٢] طبعة ١٩٩١م .

« (٢٤) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ؛ (٢٥) وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يتوخ إلا نفسه وأهل بيته ، (٣٧) وإن على اليهود نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ، (٤٤) وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، (٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن اللَّه جار لمن بر واتقى ، محمد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم » .

وهذه الصحيفة تحتاج لوقفة طويلة لتأمل العبقرية النبوية في ترتيب أوضاع الجماعة المسلمة وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية الناشئة ، وما ذكرناه يبين طبيعة العلاقة التحالفية مع اليهود .

٢- ميثاق الأمان الذي عقده رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مع بني ضمرة في غزوة الأبواء في صفر من السنة الثانية للهجرة .. وقد جاء فيه : « بسم اللَّه الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول اللَّه لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رماهم إلا أن يحاربوا في دين اللَّه ما بل بحر صوفة . وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه عليهم بذلك ذمة اللَّه وذمة رسوله ولهم النصر على من بر واتقى »[1] ا.هـ .

فهذه الوقائع وغيرها [2] تؤكد مع أدلة الكتاب والسنة جواز التحالف كخيار للفئة المؤمنة تعقده مع من تشاء طالما كان يحقق مصلحة للدين ولا يخالف ما هو مشروع ولا يكون فيه مبغض لله أو يؤدي إلى مبغض لله أكبر من المحاب التي قصد بها .

---

(١) راجع المصادر الآتية : مجموعة الوثائق ، المنهج الحركي [٢١١] البداية والنهاية [٢ / ٢٨٣] .

(٢) مما يستأنس به من هذه الوقائع ما ذكره ابن هشام في سيرته [١ / ٢٧] ط دار الكتب العلمية : « إنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضى اللَّه تعالى عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - والوليد يومئذ أمير على المدينة أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان رضى اللَّه تعالى عنه - منازعة في مال كان بينهما بذي المروة ، فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه فقال له الحسين : أحلف باللَّه لتنصفني من حقي أو لأخذن سيفي ثم لاقومن في مسجد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ثم لأدعون بحلف الفضول قال : فقال عبد اللَّه بن الزبير وهو عند الوليد =

وهذا الخيار يحتاج إلى نظر دقيق في الأمور وتقدير صحيح للمصالح المرجوة والمفاسد المتوقعة وموازنة متجردة بينهما ، وينبغي ألا يقوم به إلا أصحاب القلوب التقية والنفوس النقية والإرادة القوية كي لا تدفع إليه أهواء النفوس أو تمنع منه تردد العقول ، وهو كما قال الإمام بن القيم رحمه اللّه : « وهذا من أدق المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق »[1] ا.هـ .

وما بين الحذر من سلوك هذا الخيار والإقدام عليه دون تجرد ضاعت فرص ومصالح لأهل الإسلام من جراء التردد ، وغرق أفراد وجماعات في لجة الأغراض والأهواء عندما أقدموا عليه بمعزل عن إيثار مراد اللّه وللتحالف قواعد وأحكام يرجع لكتب الفقه والسيرة والأصول والعقيدة للوقوف عليها .

○ **خامسا : الهجرة**

وهي الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام أو إلى دار أمن وأمان لأهل الإيمان ، ولا يجهل أحد جواز هذا الأمر ، فالكل يعلم بهجرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلى المدينة ، وهجرة المسلمين إليها ، وقبل ذلك كانت هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة لما ازداد اضطهاد قريش لهم ، فقال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ؛ فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل اللّه لكم فرجا مما أنتم فيه »[2] ا.هـ .

= حين قال الحسين رضى اللّه تعالى عنه ما قال : وأنا أحلف باللّه لئن دعا به لآخذن سيفي ، ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا ، قال فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد اللّه التيمي فقال مثل ذلك فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضى » ا.هـ .

ويعلق السهيلي على ذلك فيقول : « وذكر خبر الحسين مع الوليد بن عتبة وقوله لآخذن سيفي ثم لأدعون بحلف الفضول .. إلى آخر القصة فيه من الفقه تخصيص أهل الحلف بالدعوة وإظهار التعصب إذا خافوا ضيما » ا.هـ . الروض الأنف [١ / ١٢٨] .

(١) زاد المعاد لابن القيم [٢ / ١٢٨] .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير [٢ / ٨٠] .

يقول بن قدامة المقدسي رحمه اللّه عن حكم الهجرة : « وحكم الهجرة باق إلى يوم القيامة في قول عامة أهل العلم وقال قوم : قد انقطعت الهجرة »[1] ثم انتصر للقول ببقائها ثم شرع في بيان تفصيل حكمها فقال : « فالناس في الهجرة على ثلاثة أضرب :

أحدها : من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه ولا يمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذا تجب عليه الهجرة لقول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب لأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه ، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

الثاني : من لا هجرة عليه وهو من يعجز عنها ، إما لمرض أو إكراه على الإقامة أو ضعف من النساء ، والولدان ، وشبههم ، فهذا لا هجرة عليه لقول اللّه تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء] ولا توصف باستحباب لأنها غير مقدور عليها .

الثالث : من تستحب له ولا تجب عليه وهو من يقدر عليها لكنه يتمكن من إظهار دينه وإقامته في دار الكفر فتستحب له ليتمكن من جهادهم وتكثير المسلمين ومعونتهم ويتخلص من تكثير الكفار ومخالطتهم ورؤية المنكر بينهم ، ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجب دينه بدون الهجرة وقد كان العباس عم النبي صلى اللّه عليه وسلم مقيما بمكة مع إسلامه ، وروينا أن نعيم النحام حين أراد أن يهاجر جاء قومه بنو عدي فقالوا له : أقم عندنا وأنت على دينك ونحن معك ممن يريد أذاك ، واكفنا ما كنت تكفينا ، وكان يقوم بيتامى بني عدي وأراملهم فتخلف عن الهجرة مدة ثم هاجر بعد ، فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : « قومك كانوا خيرا لك من قوم لي ، قومي أخرجوني وأرادوا قتلي ، وقومك حفظوك

(١) المغنى [١٠ / ٥١٣] .

ومنعوك » فقال : يا رسول اللَّه بل قومك أخرجوك إلى طاعة اللَّه وجهاد عدوه ، وقومي ثبطوني عن الهجرة وطاعة اللَّه ، ونحو هذا القول » [1] ا.هـ .

فالهجرة قد تجب أو تستحب أو لا تجب على حسب أحوال أهل الإسلام والمصالح المترتبة عليها ، ويوضح ذلك ما أجاب به الإمام الرملي الشافعي على سؤال عن مدى وجوب الهجرة على المسلمين الساكنين ببلدة أرغوان الأندلسية وهم تحت ذمة سلطان نصراني قد سلط عليها ويأخذ منهم خراج الأرض بقدر ما يصيبون منها ، ولم يعتد عليهم بظلم لا في أموالهم أو أنفسهم ، ولهم جوامع يصلون فيها ويظهرون شعائر الإسلام عينا ويقيمون شريعة اللَّه جهرا .. فقال الإمام الرملي : « بأنه لا تجب الهجرة على هؤلاء المسلمين من وطنهم ، لقدرتهم على إظهار دينهم به ؛ ولأنه صلى اللَّه عليه وسلم بعث عثمان يوم الحديبية إلى مكة لقدرته على إظهار دينه بها ، بل لا تجوز الهجرة منه ؛ لأنه يرجى بإقامتهم به إسلام غيرهم ، ولأنه دار إسلام فلو هاجر منه صار دار حرب »[2] ا.هـ .

○ **سادسا : طلب النصرة :**

فقد كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يعرض نفسه الكريمة على أحياء العرب في موسم الحج ليؤوه وينصروه ويمنعوه ممن كذبه وخالفه ولم يجبه أحد لما ذخر اللَّه تعالى للأنصار من الكرامة .

يقول الإمام بن كثير [3] رحمه اللَّه قال ابن إسحاق : ثم قدم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم – أي من الطائف بعد أن رفضوا نصرته – مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به فكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى اللَّه عز وجل ويخبرهم أنه نبي

(١) المغنى [٥١٤/١٠] راجع أحكام الهجرة في المراجع الآتية : تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي تفسير سورة النور آية [٩٧ – ١٠٠] ، وسبل السلام للصنعاني [١٣٣٤/٤] ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للعلامة شمس الدين الرملي « الشهير بالشافعي الصغير » دار الكتب العلمية ، بيروت [٨٢/٨] ، وحاشية قليوبي وعميرة على شرح منهاج الطالبين ، دار إحياء الكتب [٢٢٦/٤] .

(٢) فتاوى الإمام الرملي بهامش الفتاوى الكبرى الفقهية لابن حجر الهيثمي [٤ / ٥٢] نقلا عن اختلاف الدار وأثره في أحكام المناكحات والمعاملات للدكتور : إسماعيل لطفي قطاني . دار السلام للطباعة والنشر [٦٣] .

(٣) البداية والنهاية [١٦٥/٢ – ١٦٨] .

مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن اللّه ما بعثه عنه (...) وقال موسى بن عتبة عن الزهري : فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه ويقول : « لا أكره أحدا منكم على شيء ، من رضى منكم بالذي أدعوه إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه ، إنما أريد أن تحرزوني فيما يراد لي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي ، وحتى يقضي اللّه لي ولمن صحبني بما شاء « فلم يقبله أحد منهم . وما يأت أحد من تلك القبائل إلا قال : قوم الرجل أعلم به ، أترون رجل يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه ؟! وكان ذلك مما ذخره اللّه للأنصار وأكرمهم به .

وقد روى الحافظ أبو نعيم عن طريق عبد اللّه بن الأجلح ويحيى بن سعيد الأموي كليهما عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . قال : قال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لا أرى عندك وعند أخيك منعة فهل أنت مخرجي إلى السوق غدا حتى نقر إلى منازل قبائل الناس ؟ » وكانت مجمع العرب ، قال : فقلت : هذه كندة ولفها وهي أفضل من يحج البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل وهذه منازل عامر بن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال : فبدأ بكندة فأتاهم ، فقال ممن القوم ؟ قالوا : من أهل اليمن . قال من أي اليمن ؟ قالوا : من كندة . قال : من أي كندة ؟ قالوا من بني عمرو بن معاوية ، قال : فهل لكم إلي خير ؟ قالوا : وما هو ؟ قال : « تشهدون أن لا إله إلا اللّه وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند اللّه « قال عبد اللّه ابن الأجلح : وحدثني أبي عن أشياخ قومه أن كندة قالت له : إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إن الملك لله يجعله حيث يشاء « فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئتنا به . وقال الكلبي : فقالوا : أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا وننابذ العرب . الحق بقومك فلا حاجة لنا بك . فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال : ممن القوم قالوا من بكر بن وائل . فقال : من أي بكر بن وائل ؟ قالوا : من بني قيس ابن ثعلبة . قال كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة ، جاورنا الفرس فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم . قال : « فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا اللّه ثلاثا وثلاثين ، وتحمدوه ثلاثا وثلاثين وتكبروه أربعة وثلاثين « قالوا : ومن

أنت ؟ قال : أنا رسول اللّه . ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبي : وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس : لا تقبلوا قوله ، ثم مر أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا في الذروة منا ، أي شأنه تسألون ؟ فأخبروه بما دعاهم وقالوا : زعم أنه رسول اللّه قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولا ، فإنه مجنون يهذي من أم رأسه . قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر » ا.هـ .

ثم أذن اللّه في قدوم الأنصار عاما بعد عام فبايعوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على نصرته وتحول إليهم في داره وأقام دولته .

○ **سابعا : الصلح والهدنة والموادعة :**

وهو خيار نبوي جاء مصدقا لقوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾

قال الإمام ابن قدامة رحمه اللّه : « ومعنى الهدنة أن يعقد لأهل الحرب عقدا على ترك القتال مدة بعوض أو بغير عوض وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة وذلك جائز بدليل قول اللّه تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ١] وقال تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ »[1].

ويقول أيضا : « وإذا عقد الهدنة لزمه الوفاء بها لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] وقال تعالى : ﴿ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة : ٤] ولأنه لو لم يف بها لم يسكن إلى عقده وقد يحتاج إلى عقدها » [2] ا.هـ .

وقال الأمير الصنعاني رحمه اللّه تعليقا على صلح الحديبية : « الحديث دليل على جواز مهادنة المسلمين وأعدائهم من المشركين مدة معلومة لمصلحة يراها الإمام وإن كره ذلك أصحابه » [3] ا.هـ .

ويقول الإمام بن القيم رحمه اللّه عند الفوائد الفقهية في صلح الحديبية : « ومنها جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ولا توقف عن ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم » [4] ا.هـ .

---

(١) المغنى [١٠ / ٥١٧] .

(٢) المغنى [١٠ / ٥٢١] .

(٣) سبل السلام للصنعاني [٤ / ١٣٧٩] .

(٤) زاد المعاد [٢ / ١٢٨] .

والمهادنة رغم أنها خيار نبوي قد نجد من يرفض إمكانية وقوعها بل وقد يأنف من مجرد ذكر لفظها ؛ لأنه يعدها من قبيل التنازل عما لا يصلح التنازل عنه من أحكام الدين ويعتبرها نوعا من المولاة الممنوعة ، وصاحب هذا الفهم جانبه الصواب ؛ فلا حرج في القول بجواز المهادنة فهذا تعبير لم يأنف أحد الفقهاء من ذكره لأنهم يعلمون أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قد هادن ووادع أقواما له مخالفين .

ونعجب ممن يرفض هذا الخيار رغم انه من هدى النبي صلى اللَّه عليه وسلم كما نعجب من غفلته عن حكمة تقرير هذا الخيار والتي تدور حول تحقيق مصالح أهل الدين والتي تفرضها معطيات الواقع ومستجداته والتي ربما أدت إلى ظهور أعداء جدد أو طروء تهديد من جهة أخرى أشد خطورة من طرف آخر ، أو حدوث تغير في المواقف مما يرجى معه ممن يصالح أن يصير نصيرا للدين أو يصبح سيفا على من يريده بسوء إلى غير ذلك من الأمور التي قد تطرأ أو تحتاج إلى تفاعل شرعي سديد معها .

ولا تناقض بين إتمام المهادنة والمصلحة والاستمساك بأحكام الشرع الحنيف والحفاظ على المولاة ، ففارق بين وضع القتال وتصحيح مذاهب أو عقائد من تقع معهم المعاهدة ، فقد صالح رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قريشا ولم يكن في ذلك إهدارا لحكم شرعي أو وقوع في مولاة ممنوعة أو تصحيح لمذاهب باطلة وعلى هديه صلى اللَّه عليه وسلم فلنسر .

○ **ثامنا : التعايش :**

لقد اختار رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ذلك الخيار لأصحابه المهاجرين إلى الحبشة ؛ بعدما اشتد الإيذاء عليهم في مكة فقال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل اللَّه لكم فرجا مما أنتم فيه » ا.هـ .

ومن المعلوم أنهم سيذهبون إلى بلد تدين بغير الإسلام وملكها لا يحكم بما أنزل اللَّه وكان من المتوقع أن تؤلب عليهم قريش هذا الملك حتى تستعيدهم وهو ما حدث ووقع .

ولقد استمر المهاجرون إلى الحبشة على تلك السياسة حتى بعد أن هاجر النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى المدينة وشرع اللَّه الجهاد ، لقد استمرت هذه السياسة ولم يرسل إليهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم بتغييرها رغم أن النجاشي كان في ظاهر الأمر على دين قومه ولم يكن

حاكما بشريعة الإسلام ، لأن صحابة النبي صلى اللّه عليه وسلم كانوا يدركون أنه في حكم المكره على ذلك ، وأن المصلحة في بقائه على هذا الحال الذي يوفر لهم الأمان وأنهم لو حاولوا أن يحملوه على الحكم بما أنزل اللّه فلن يستطيع أو يستطيعوا ، وإن وافقهم على ذلك لخلعه قومه ونكلوا به وبالمسلمين هناك .

فتعايش صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الحبشة مع النجاشي قبل أن يسلم وأيضا مع النظام القائم هناك بعد أن أسلم وأخفى إسلامه ، ولقد كانوا في الحالين مخلصين لدينهم محافظين على عقيدتهم لا يداهنون أحدا على حسابها ، ويكفي أن نستمع الحوار الذي دار بين جعفر بن أبى طالب والنجاشي لنعلم ولنتعلم كيف يكون الدفاع عن العقيدة والثبات عليها وعدم التفريط فيها ، ويقول ابن كثير في البداية والنهاية : فأرسل إليهم النجاشي مجمعهم ولم يكن شيء أبغض لعمرو ابن العاص وعبد اللّه ابن أبى ربيعة من أن يسمع كلامهم فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم - أي المسلمون - فقالوا : ماذا تقولون ؟ فقالوا : وماذا نقول ؟ نقول : واللّه ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا وما جاء به نبينا صلى اللّه عليه وسلم كائن من ذلك ما كان ، فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه فقال له النجاشي : ما هذا الدين الذي أنتم عليه ؟ فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية . فقال له جعفر أيها الملك كنا قوما على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار ويستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها ، لا نحل شيء ولا نحرمه . فبعث اللّه إلينا نبيا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا إلى أن نعبد اللّه وحده لا شريك له ، ونصل الأرحام ، ونحمي الجوار ، ونصلي لله عز وجل ، ونصوم له ولا نعبد غيره . وقال زياد عن ابن إسحاق : فدعانا إلى اللّه لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد اللّه ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قال .. فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند اللّه ، فعبدنا اللّه وحده لا شريك له ، لم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا

يفتنوننا من ديننا ويردونا إلى عبادة الأوثان عن عباده اللَّه ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك عن من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قال : فقال النجاشي : هل معك شيء مما جاء به ؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله . فقال له جعفر : نعم . قال : هلم فاتل على مما جاء به ، فقرأ عليه صدرا من سورة مريم فبكى - واللَّه - النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم . ثم قال : إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى ، انطلقوا راشدين لا واللَّه لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عينا . فخرجنا من عنده وكان أبقى الرجلين فينا عبد اللَّه ابن ربيعة فقال عمرو بن العاص : واللَّه لآتينه غدا بما استأصل به خضراءهم ، أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد ، عيسى ابن مريم عبد . فقال له عبد اللَّه بن ربيعة : لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحما ولهم حقا ، فقال : واللَّه لأفعلن ! فلما كان الغد دخل عليه فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عنه . فبعث أ واللَّه - إليهم ولم ينزل بنا مثلها ، فقال بعضنا لبعض : ماذا تقولون في عيسى إن هو يسألكم عنه ؟ فقالوا : نقول واللَّه الذي قاله اللَّه فيه ، والذي أمرنا نبينا أن نقول فيه ، فدخلوا عليه وعنده بطارقته فقال : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال جعفر : نقول هو عبد اللَّه ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فدلى النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عودا بين إصبعيه فقال : ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته . فقال : وإن تناخرتم واللَّه ! اذهبوا فأنتم سيوم في الأرض - السيوم الآمنون في الأرض - من سبكم غرم . من سبكم غرم . ثلاثا ، ما أحب أن لي دبرا وأني أذيت رجلا منكم والدبر بلسانهم الذهب .

وقال زياد عن ابن إسحاق : « ما أحب أن دبرا من ذهب » .

قال ابن هشام : وقال زبرا وهو الجبل بلغتهم ، ثم قال النجاشي : فواللَّه ما أخذ اللَّه مني الرشوة حين رد اللَّه علي ملكي ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه . ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها واخرجا من بلادي ، فخرجا مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به [1] . ا.هـ .

(١) البداية والنهاية لابن كثير [٢ / ٨٨ - ٨٩] .

وتبلور الموقف بعد ذلك بين الفئة المؤمنة والنجاشي في الحدود التي رسمها قول النجاشي لهم والتي أشار إليها ابن كثير بقوله : « ثم قال - النجاشي - أيؤذيكم أحد ؟ قالوا : نعم ! فنادى مناد : من آذى أحدا منهم فأغرموه أربعة دراهم . ثم قال : أيكفيكم ؟ قلنا : لا . فأضعفها ، قال الراوي : فلما هاجر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى المدينة وظهر بها قلنا له : إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد ظهر وهاجر إلى المدينة وقتل الذين كنا حدثناك عنهم وقد أردنا الرحيل إليه ، فردنا . قال : نعم ، فحملنا وزودنا ثم قال : أخبر صاحبك بما صنعت إليكم وهذا صاحبي معكم أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنه رسول اللَّه وقل له : يستغفر لي . قال جعفر : فخرجنا حتى أتينا المدينة فتلقاني رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم واعتنقني ثم قال : « ما أدرى بفتح خيبر أفرح ؟ أم بقدوم جعفر ووافق ذلك فتح خيبر » [1] ا.هـ .

ولقد وجد المؤمنون المهاجرون للحبشة عند النجاشي الأمان وعدم الظلم وعندما حدث نزاع بين النجاشي ورجل من الحبشة تمنى المسلمون انتصار النجاشي ودعوا له .

يذكر ابن كثير عن السيدة أم سلمة إحدى المهاجرات للحبشة قولها : « فأقمنا مع خير جار في خير دار ، فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ، فواللَّه ما علمنا حزنّا قط هو أشد منه ، فرقا من أن يظهر ذلك الملك عليه فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه فجعلنا ندعو اللَّه ونستنصره للنجاشي فخرج إليه سائرا ، فقال أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بعضهم لبعض : من يخرج فليحضر الوقعة حتى ينظر على من تكون ؟ قال الزبير - وكان أحدثهم سنا - : أنا . فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ، فجعل يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس ، فحضر الوقعة فهزم اللَّه ذلك الملك وقتله ، وظهر النجاشي عليه . فجاءنا الزبير فجعل يليح لنا بردائه ويقول : ألا فابشروا ، فقد أظهر اللَّه النجاشي . قلت : فواللَّه ما علمن أننا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي ، ثم أقمن عنده حتى خرج منا من خرج إلى مكة وأقام من أقام » [2] ا.هـ .

إن هذه العلاقة التعايشية التي تحقق الأمان للفئة المؤمنة مع احتفاظها بتميزها وصفاء عقيدتها خيار جدير بالانتباه إليه متى وجد الطرف الآخر الذي لا يظلم عند أحد .

(١) البداية والنهاية [٢ / ٨٦] .

(٢) البداية والنهاية : [٢ / ٩٠] .

○ **تاسعا : الاعتزال والحياد :**

ولا يقصد به اعتزال الناس وترك مخالطتهم ولكن نقصد اعتزال الدخول في صراع قائم بين أطراف آخرين والوقوف على الحياد بينهم .

وهذا الخيار دل على أمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم باعتزال المتقاتلين في قتال الفتنة والصراع على الدنيا والملك ولقد وردت في هذا أحاديث كثيرة نكتفي بأحدها :

عن عبد اللَّه بن حباب رضى اللَّه تعالى عنه قال : سمعت أبي يقول : سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول : « تكون فتنه القاعد فيها أفضل من القائم ، والقائم أفضل من الماشي ، والماشي فيها أفضل من الساعي فإن كان ذلك فكن فيها عبد اللَّه المقتول ولا تكن القاتل » [1] ا.هـ .

قال الأمير الصنعاني : « والحديث دليل على ترك القتال عند ظهور الفتن والتحذير من الدخول فيها ، قال القرطبي : اختلف السلف في ذلك ، فذهب سعد ابن أبى وقاص وعبد اللَّه بن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم إلى أنه يجب الكف عن المقاتلة ، فمنهم من قال : أنه يجب عليه أن يلزم وقالت طائفة : يجب عليه التحول من بلد الفتنة أصلا ، ومنهم من قال يدافع عن نفسه وعن أهله وعن ماله وهو معذور إن قُتل أو قَتل . وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغين وحملوا هذه الأحاديث على من ضعف عن القتال أو قصر نظره عن معرفة الحق ، وقال بعضهم بالتفصيل وهو أنه إذا كان القتال بين طائفتين لا إمام لهم فالقتال حينئذ ممنوع وتنزل الأحاديث على هذا وهو قول الأوزاعي .

وقال الطبري : إنكار المنكر واجب على من يقدر عليه فمن أعان المحق أصاب ومن أعان المبطل أخطأ وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها . وقيل : إن النهى إنما هو في آخر الزمان حيث تكون المقاتلة لطلب الملك »[2] ا.هـ .

فهذا الاعتزال يحتاج لتدقيق كي يقع في موقعه الصحيح حتى لا يحجم المرء عن أمر واجب عليه أو يقدم على أمر وهو مأمور بالبعد عنه .

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد [٥ / ١١٠] ، والطبراني في الكبير [٤ / ٦٠ / ٣٦٣٠] وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : رجاله ثقات ، وأبو يعلى [١٣ / ١٧٦ ، ١٧٧] .

(٢) سبل السلام للصنعاني [٤ / ١٣٢٨ ، ١٣٢٩] .

○ **عاشرا : الردع والجهاد :**

وهذا الخيار ينطلق من قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] وقوله تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] . والآيات والأحاديث الدالة على ذلك الخيار كثيرة ومتعددة وسيرة النبي في الجهاد واضحة وبينة .

فهذه بعض الخيارات والسياسات النبوية الراشدة ذكرنا منها عشرة خيارات لكل خيار منها فقهه وأحكامه التي تنظمه وتوضحه ، وتحدد للمؤمنين متى يسلكونه ومتى ينتهون عن انتهاجه .

☜ والسؤال الآن : لماذا يصر البعض رغم وضوح تلك السياسات النبوية على القول بأن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة المشروعة الواجب الأخذ بها ؟

☜ هل يمكن أن نتصور أنهم لا يعلمون شيئا عن هذه الخيارات النبوية ، أم أن لديهم ما يستدلون به على ما يدعونه ؟

نستطيع القول أن أصحاب هذا الرأي يستندون إلى دليلين **أحدهما** : يتعلق بنسخ الجهاد لخيار الصفح والعفو وكل الخيارات الأخرى ، **والآخر** : يتعلق بمدى الجدوى من سلوك الخيارات الأخرى غير الجهاد لإقامة دولة الإسلام ، ولنناقش الأمرين :

أولا : مناقشة أن الجهاد قد نسخ كل الخيارات النبوية الأخرى :

استدل أصحاب هذا الرأي بأن الله تعالى عندما فرض الجهاد نسخ بذلك خيار العفو والصفح والصبر ، وأنهى بالآيات الموجبة له كل عهد وصلح وأيدوا قوله بالآتي :

○ ما ذكره أئمة التفسير من أن آية السيف قد نسخت كل آيات العفو والصفح والصبر في القرآن ومن هؤلاء :

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم أنها نسخت كل عهد بين النبي صلى اللّه عليه وسلم وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة »[1] ا.هـ .

وقال الألوسي رحمه اللّه : وهذه على ما قال السيوطي هي آية السيف التي نسخت آيات العفو والصفح والإعراض والمسالمة »[2] ا.هـ .

وقال العلامة ابن حجر : آية السيف : ﴿ وَقَٰتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ ا.هـ .

وقال أبو بكر العربي : « كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار والتولي والإعراض والكف عنهم منسوخ بآية السيف وهي : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ .. ﴾ [التوبة : ٥] الآية نسخت مائة وأربعا وعشرين آية ، ثم نسخ آخرها أولها »[3] ا.هـ .

وهذه الآية هي من سورة التوبة وهي من أواخر ما نزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كما روى البخاري [4] وبذلك يتضح أن الخيار المحكم الذي توفي عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو الجهاد لا غيره من الخيارات ... تلك هي استدلالاتهم .. فما مدى صحتها ؟

بيان خطا هذا الاستدلال :

نناقش هذا الاستدلال من عدة أوجه تكشف لنا الخطأ الذي وقعوا فيه :

○ **الوجه الأول :**

إنه من الخطأ القول بأن فرض الجهاد نسخ الصفح والصبر كخيار إسلامي أصيل ؛ لأن معنى هذا القول أنه لا يجوز لأهل الإسلام لزوم الصبر أو اختيار الصفح والعفو عن من يخالفهم .

والصواب في هذا الأمر هو أن فرض الجهاد نسخ وجوب لزوم الصبر على الفئة المؤمنة ولم ينسخ جواز الصبر والصفح وفارق بين الأمرين .

---

(١) تفسير القرآن العظيم [٢ / ٣١١] .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لشهاب الدين الألوسي ، دار الفكر للطباعة والنشر [١٠ / ٥٠] .

(٣) نقلا عن الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، دار الفكر [٢٤/٢] .

(٤) روى البخاري [٤٦٥٤] عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه : « آخر آية نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ [النساء : ١٧٦] ، وآخر سورة نزلت براءة .

فقد كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم واجبا عليه قبل الإذن له بالجهاد أن يصبر على الأذى بحيث لا يجوز له أن يتعداه لغيره ، فلما أذن له فيه بقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ .. ﴾ [الحج : ٣٩] الآية صار الجهاد جائزا وأيضا بقي الصبر على الأذى جائزا أما الذي نسخ فهو وجوب لزوم الصبر ويدل على ذلك الآتي :

١- أن خيار الصبر كان لا يسع النبي صلى اللَّه عليه وسلم تركه قبل الإذن له بالجهاد فهو كان مأمورا بلزوم الصبر ويدل على ذلك ما وقع في بيعة العقبة الثانية . وذكره بن كثير قال : « عن معبد بن كعب عن أخيه عبد اللَّه بن كعب بن مالك قال : فلما بايعنا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب - والجباجب : المنازل - هل لكم في مذمم - يقصد محمدا - والصئباء معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ قال : فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : هذا أزب العقبة ، وهذا ابن أزيب (...) أتسمع أي : عدو اللَّه ؟ أما واللَّه لأتفرغن لك . ثم قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « ارجعوا إلى رحالكم « قال : فقال العباس بن عبادة بن نضلة : يا رسول اللَّه والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا . قال فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم » [1] ا.هـ .

فانظر إلى قوله صلى اللَّه عليه وسلم : « لم نؤمر بذلك « مما يبين أن خيار الصبر كان واجبا ثم بعد ما فرض الجهاد صار جائزا .

٢- مما يؤكد القول ببقاء خيار الصبر قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] . فهذه الآية مدنية نزلت بعد فرض الجهاد والإذن فيه ، وتدعوا المؤمنين إلى العفو والصفح ، فتبين من ذلك أن فرض الجهاد لم ينسخ خيار الصبر ، ولم يلغه ولكن الذي نسخ هو وجوب لزومه ، فأمرهم اللَّه تعالى بالصفح عن أهل الكتاب حتى يأتي بأمره .

(١) البداية والنهاية لابن كثير [٢ / ١٩٣] .

قال القرطبي في تفسير الآية : « قال أبو عبيدة : كل آية فيها ترك القتال مكية منسوخة بالقتال ، قال ابن عطية : وحكمه أن هذه الآية مكية ضعيف ؛ لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة . قلت : وهو الصحيح (...) وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم اللَّه تعالى ويصبرون على الأذى قال اللَّه عز وجل : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران : ١٨٦] ، وقال : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ .. ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يتأول العفو عنهم ما أمره اللَّه به حتى أذن له فيهم » [١] ا.هـ .

فرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أمره اللَّه بالصبر مع أذاهم ، بل أنه كتب كتابا بينه وبين اليهود عندما قدم للمدينة يوادعهم فيه ، ولو كان فرض القتال والإذن فيه يلغي خيار الصبر أو الموادعة أو التحالف لما جاز أن يوادعهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم .

وقد يقول قائل : « لماذا لا يذكرون ما قاله المفسرون من أن هذه الآية قد نسختها آية السيف ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ .. ﴾ [التوبة : ٥] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] ؟

نقول : هذه الآية عند من عدها منسوخة فالنسخ فيها جاء لتقرير أخذ الجزية من أهل الكتاب ولم تكن الجزية مقررة من قبل ، ولا ينصب النسخ على المنع من مقاتلهم ؛ لأننا نعلم يقينا أن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم قد غزا يهود بني قينقاع عقب غزوة بدر ، وغزا بني النضير بعد غزوة أحد وغزا بني قريظة عقب الخندق ، وكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية [٢] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للعلامة أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد القرطبي ، مكتبة الغزالي دمشق [٧٢/١] .

(٢) راجع تفصيل هذه الغزوات في زاد المعاد [٢ / ٧١ ، ١٣٣] .

وكل ذلك كان قبل نزول آية السيف وآية الجزية مما يدل على أن جهادهم كان مأذونا فيه تماما كما كان العفو والصفح مأذونا فيه في التعامل معهم وبنزول آية الجزية صار الواجب عليهم إما الإسلام أو إقرارهم على دينهم بدفع الجزية .

قال الإمام السيوطي رحمه الله : « قال مكي : ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعر بالتوقيت والغاية مثل قوله في سورة البقرة : ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ١٠٩] محكم غير منسوخ ؛ لأنه مؤجل بأجل والمؤجل بأجل لا نسخ فيه »[1] ا.هـ .

٣- يؤكد بقاء خيار الصبر كخيار جائز اللجوء إليه أن الصحابة الذين هاجروا للحبشة استمروا عليه رغم فرض الجهاد ، وقد يقول قائل أنهم كانوا في عقد أمان بينهم وبين النجاشي لا يصح أن ينقضوه ، قلنا : هذا تسليم منكم بمثل هذا الخيار - خيار المعايشة وعقد الأمان - وتسليم بجوازه رغم فرض الجهاد وهو ينقض ما تدعونه من كون الجهاد قد نسخ كل الخيارات وكان الواجب - لو صح ما تدعون - أن يتركوا هذا الحال من الصبر والمعايشة إلى الجهاد والمقاتلة ، فلما لم يفعلوا دل ذلك على جواز الصبر ، حتى ولو كان الجهاد جائزا .

○ **الوجه الثاني :**

ونناقش فيه قولكم بأن آية السيف قد نسخت خيار الصبر .

ونبدأ بتقرير أن من العلماء لم يقبل قول من قال أن آية السيف قد نسخت مائة وأربعا وعشرين آية من آيات الصفح والصبر والكف عن المشركين ومن هؤلاء الإمام السيوطي حيث يرفض التوسع في القول بالنسخ ويضرب مثالا لذلك بآية السيف بل وينقل هذا النكير عن الإمام أبى بكر بن العربي الذي يستدلون بقوله ، ولنستمع للإمام السيوطي حيث يقول : « والضرب الثاني : ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة وهو على الحقيقة قليل ، وإن أكثر الناس من تعديد الآيات فيه فإن من المحققين منهم القاضي أبى بكر بن العربي بين ذلك وأتقنه والذي أقوله : أن الذي أورده المكثرون أقسام :

(١) الإتقان للسيوطي [٢ / ٢١] .

قسم ليس من النسخ في شيء ولا من التخصيص ولا له بهما علاقة بوجه من الوجوه (...) وكذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين : ٨] قيل أنها مما نسخ بآية السيف وليس كذلك لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبدا لا يقبل هذا الكلام النسخ وإن كان معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقب . وقوله في سورة البقرة : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] عده بعضهم من المنسوخ بآية السيف ، وقد غلط ابن الحصار فإن الآية حكاية عما أخذه على بني إسرائيل من الميثاق فهو خبر فلا نسخ فيه ، وقس على ذلك (...) إذا علمت ذلك فقد خرج من الآيات التي أوردها المكثرون الجم الغفير مع آيات الصفح والعفو وإن قلنا : أن آية السيف لم تنسخها وبقى مما يصلح لذلك عدد يسير قد أفردته بأدلته في تأليف لطيف » [1] ا.هـ .

ثم يبين الإمام السيوطي رحمه اللّه أن خيار الصبر الذي قررته آيات الصفح يجب أن يمتثل عندما تتوفر مقتضياته وأنه يعد من المنسأ ولا يعد منسوخا بآية السيف وفي هذا يقول : « وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية منسوخة بآية السيف وليس كذلك بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم بل ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ليس بنسخ إنما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله »[2] ا.هـ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه : « فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو »[3] ا.هـ .

○ **الوجه الثالث :**

إن القول بأن الجهاد قد ألغى الخيارات الأخرى ليس بصحيح فما زالت الأمة تصالح أعدائها عندما تكون هناك مصلحة في ذلك ، ولازالت كتب الفقه عامرة تحدثنا عن أحكام المهادنة والصلح والهجرة والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكيف يصح ذلك القول رغم كل هذا ؟!!

---

(١) الإتقان [٢ / ٢٢] .

(٢) الإتقان [٢ / ٣١] .

(٣) الصارم المسلول لابن تيمية [٢٢١] .

ثانيا : مناقشة القول بأن الخيارات الأخرى غير الجهاد غير مجدية :

ورغم أن هذا القول لا يعد دليلا شرعيا ولا يعتمد إلا على تقدير للأمور الواقعية وما يصلح لها وما لا يصلح ، ر غم هذا فسوف نبين خطأ هذا الظن :

لا يتحتم الجهاد لإقامة الدين والدولة :

إن القول بأن الخيارات الأخرى التي أجازها الإسلام غير مجدية يصطدم بحقيقة بديهية ، لا تغيب عن أي مطلع على سيرة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فدولة الإسلام الأولى التي أقامها بالمدينة لم تكن نتاجا لمقارعة بالسيف والسنان ، أو نتيجة لجهاد وقتال ؛ إنما كانت نتيجة لخياري الدعوة وطلب النُصرة اللذين سلكهما النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى وفق اللّه الأنصار إلى مبايعته ، ثم جاءت جهود الداعية المخلص مصعب بن عمير رضى اللّه تعالى عنه كي تتهيأ المدينة لاستقبال دولة الإسلام ، فهل كان الخيار الدعوي هنا مجديا أم لا ؟ أجيبوا بصدق يرحمكم اللّه !

وهل يمكن إغفال أن كثيرا من مناطق العالم قد دخلها الإسلام عن طريق دعوة التجار ؟ فهذا يبين جدوى هذه الخيارات « كإندونيسيا ومالي وشرق آسيا » .

ومن ناحية أخرى فإننا نجد أن الشريعة في كثير من المواضع تقدم هذه الخيارات على الجهاد وبيان ذلك :

١- إن من لم تبلغه دولة الإسلام يجب إبلاغه بالدعوة قبل الشروع في قتاله .

٢- إنه في حال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تبدأ الدرجات بالتعريف والوعظ والتخويف قبل أن نصل في نهاية المطاف إلى جمع الأعوان وشهر السلاح .

٣- إنه قد يؤخر الجهاد للمرتدين لإمكانية عودتهم للإسلام . يقول صاحب الهداية : « وأما المرتدون فيوادعهم الإمام حتى ينظر في أمرهم لأن الإسلام مرجو منهم فجاز تأخير قتالهم طمعا في إسلامهم » [1] ا.هـ .

٤- إن كل وسيلة يمكن أن تحقق الهدف المرجو بصورة لا تنطوي على مشاق الجهاد تقدم عليه ؛ لقوله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ

(١) الهداية شرح بداية المبتدى لأبى الحسن المرغيناني الحنفي ، ط مصطفى البابي الحلبي [١ / ٣٦] .

كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤] . ولقوله صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف »[١] ا.هـ .

يقول الإمام الغزالي رحمه اللّه : « وقال سفيان لأصحابه : تدرون ما الرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد – قال : أن تضع الأمور في مواضعها ؛ الشدة في مواضعها ، واللين في موضعه ، والسيف في موضعه والسوط في موضعه . وهذه إشارة إلى أنه لابد من مزج الغلظة باللين ، والفظاظة بالرفق كما قيل :

لوضع الندى في موضع السيف بالفتى مضر كوضع السيف في موضع الندى

والمحمود : وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق ، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر ، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف في محله حسنا كما أن الرفق في محله حسن فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى ، وهو ألذ من الزبد بالشهد (...) وهذا ثناء أهل العلم على الرفق لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على الندور وإنما الكامل ما يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطي كل أمر حقه فإن كان قاصر البصيرة وأشكل عليه واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق فإن النجح معه في الأكثر »[٢] ا.هـ .

٥- إن الفقهاء قد قرروا عدم جواز اللجوء للقتل في حالة استعار القتال إذا كان المقصود من الجهاد يتحقق بغير ذلك مما هو أخف ، وهذا المعنى نجده واضحا في قتال البغاة ، ودفع الصائل على النفس أو المال أو العرض .

يقول ابن قدامة المقدسي في حديثه عن أحكام قتال البغاة : « ثم إن أمكن دفعهم دون القتل لم يجز قتلهم ؛ لان المقصود دفعهم لأهلهم ؛ ولأن المقصود إذا حصل بدون القتل لم يجز القتل عن غير حاجة »[٣] ا.هـ .

---

(١) أخرجه مسلم [٢٥٩٣ /٧٧] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي [٣ / ١٨٢] .

(٣) المغنى [١٠ / ٥٥] .

وبقول أبو بكر الجصاص في تفسيره لقوله سبحانه وتعال : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ .. ﴾ [الحجرات : ٩] قد اقتضى ظاهر الآية الأمر بقتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر اللّه وهو عموم في سائر ضروب القتال ، فإن فاءت إلى الحق والقتال بالعصي والنعال لم يتجاوز إلى غيره وإن لم تفئ بذلك قوتلت بالسيوف » [1] ا.هـ .

فالواجب التثبيت أولا من مشروعية الجهاد ، ثم إذا ثبتت مشروعيته ننظر ثانيا في إمكانية بلوغ الهدف من الجهاد بواسطة أي من الخيارات الأخرى فإذا وجدنا بعضها ممكنا القيام به علة وجه مشروع فهنا نتقدم أحد هذه الخيارات مراعاة لكل الأمور السابقة .

○ ○ ○

(١) أحكام القرآن للإمام أبى بكر أحمد بن علي الجصاص ، المتوفى سنة ٣٧٠هـ ، [٣ / ٥٩٥] .